الدكتور صلاح الدين المنجد

المجتمع الإسلامي

في ظل العدالة

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الثالثة ـ كانون الاول ١٩٧٦

المجتمع الإسلامي
في ظل العدالة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاةُ والسلام على محمد النبيّ العظيم ، الذي وحّد العرب وجعلهم بالإسلام خير أمّة أخرجت للناس .

وبعد فإن الإسلام يمرّ بأزمة عنيفة مردّها الى ثلاثة أمور :

الأوّل : تحديات الحضارة الغربية وما أدخلته الى البلاد العربية والإسلامية من سُنن وقواعد جديدة ، منها الضارّ أو النافع ، اقتبسناها تقليداً أو غباءً أو رغبة في التقدّم أو إخفاءً لعيوب التخلّف والتأخر .

الثاني : انتشار المذاهب اليسارية الماركسية في هذه البلاد ، بشكل سافر أو مقنّع ، وتحت أسماءَ مختلفة ، من أشتراكية وقومية وتقدمية ...، ومحاولتها هدم الإسلام ونسفه، بعوامل داخلية وخارجية .

الثالث : حُسْبانُ الكثير من الشبان أنّ الإسلام هو صلاة وصيام، فلا يحلّ مشكلات العصر في السياسة والاقتصاد، وليس هو بالنظام الكامل كالَ الشيوعية وغيرها ، قبل أن يُحاولوا فَهْمَ الإسلام ومعرفة نظامه .

وليس عندي من شك أن سبب الأمور الثلاثة هو جهل الكثيرين من الناس، وجهل هؤلاء الشباب خاصة ، بتراثهم الحضاري وتقاليدهم التاريخية ، وقــد

خالطتُ الذين يتّبعون المذاهب اليسارية وحادثتُهم ، وقرأتُ ما يكتبون ويؤلفون ، فوجدتُ أن انحرافهم راجعٌ قبل كل شيء إلى فقدانهم المعرفة الصحيحة العميقة بالقيم الحضارية الإسلامية، وجهلهم بالحلول التي قدّمها الإسلامُ لمشكلات الإنسانية في الدين والحكم والاقتصاد والاجتماع ، فلم يستطيعوا لذلك أن يقايسوا بين المبادىء اليسارية، ومبادىء الإسلام، ليختاروا أفضلها. يُضاف الى ذلك عقدٌ نفسيّة متنوعة الأسباب لم يستطيعوا التغلب عليها ، ولا قهرها .

والتجربةُ التاريخيّةُ الإسلامية تدّل على أنه عندما ينتشر مثل هذا الجهل، وينشأ فراغ روحي وثقافي في نفوس النـــاس ، تنشط المذاهب الهدّامة لهدم الإسلام وتراثه .

فقد انتشرت المذاهب البـــاطنية الهدّامة في عصر ضعُفت فيه الخلافة العباسيّة . وضعُف أمر الدين والعناية بقواعده ، حتى ابتعد الكثيرون عنه ، وأصبح رسوماً ظاهرة ومعاني مجهولة. فيسّر ذلك لأصحاب الفِرَق الباطنية أن يقوموا بدعوتهم ، باسم الإسلام نفسه ، كالقرامطة الشيوعيين الذين كانوا يدعون الى العدالة الاجتماعية في الظاهر ، ويريدون هدم الإسلام ، في الباطن .

وقد ذكر القاضي عبد الجبّار المعتزلي ، أن أحد كبار العلماء في زمانه، وهو ابو الحسن عليّ بن محمد بن بكر الإسفذاني ، وكان من كبار فقهاء الحنفيّة ، ومن كبار أصحاب الحديث ، غزير الرواية ، واعظاً مجيداً ، وله كتب كثيرة ، حجّ أيّامَ انتشرت القرامطة في الجزيرة العربية . فأسروه ، ثم أطلقوه . فمشى في البوادي . فكان إذا لقي فيها أهلها ذكر رسولَ الله . فلم يعرفوه . وقالوا : ما سمعنا به !

قال القاضي عبد الجبّار : وكان هو أعلمَ الناس ، أو من أعلمهم بنبوّة رسول الله وأخلاقه وشريعته ، وقومُه (أي قوم رسول الله) من العرب ، وجيرانُه في البلد ، لا يعلمون شيئاً من ذلك .

فهذا الجهل دفع القرامطة ، على رأسهم يحيى الطحّاني ، وأبو سعيد الجنّابي ، وولده ، الى المجيء الى جزيرة العرب ، فزعموا أنهم شيعة ، و قتلوا المسلمين ، ومَنْ يُقيم شريعة الإسلام ، وسبوهم ، وغزوا مكّة وغيرها ، وأحرقوا المصاحف ...[1] »

فما أشبه حالنا اليوم بحال العرب والإسلام أيام القاضي عبد الجبّار ، والقرامطة .

فإنّا لنلقى في عصرنا من الشباب مَنْ إذا حدّثته عن الإسلام قال: لا أعرف منه شيئاً ، ومن الشيوخ مَنْ إذا حدثته عن محاسن النظام الإسلاميّ تعجّب وقال : ما سمعنا بهذا ! لذلك انفتحت قلوب طائفة من الشباب الى المذاهب اليسارية النابعة من الشيوعية اللينينيّة الماركسية ، وخُيّل اليهم أنها تنظم الحياة ويسعد بها الإنسان .

والسبب في ذلك فقدان التوعية – توعية الشباب المهددين بالغزو الفكري اليساري – لمعرفة « قيم الإسلام الحضارية » .

والتقصير في هذه التوعية يعودُ الى علماء المسلمين وحُكّامهم .

أما علماء المسلمين فثلاث فئات :

فئة جاهلة لا تدري من الإسلام ونظامه سوى القشور ، اتخذت الدين وسيلة للرزق : من إمامة أو خطابة أو وعظ ، عقولُها جامدة ، تُكفّر و تُنفّر .

وفئة ثانية منافقة تريدُ تفسير الدين تفسيراً ماركسياً ، فتزعم أن الدين « اشتراكية » . تفعل ذلك نفاقاً للحكّام الاشتراكيين الثوريين وتقرّباً اليهم . فيفسد علماء هذه الفئة الدين ، ويضلّل الحكّامُ الناسَ .

وفئة ثالثة مؤمنة مخلصة ، تحاول توضيح النظام الإسلامي لكنها لا تخاطب

---

(١) إثبات النبوّات ، ج ٢ ص ٥٢٢ .

الناس على قدر عقولهم ، ولا تكتب بروح العصر ونهج العلم ، بل بروح العصور السالفة . ومن هذه الفئة مَنْ يعلو فلا يُفهم ، ومَنْ يتمحّك الأدلة ويتفلسف فيسمُج . أو من يُسف بعاميته الفكرية . وقد حُرمت هذه الفئة ، إلا القليلين منها ، الثقافةَ الغربيّة ، فما عرفت مذاهب الغرب في السياسة والاقتصاد من ينابيعها لتنقدها . فمؤلّفاتُ هذه الفئة لا تغري كثيراً الشبّان الجُدُد ،ولا المثقفين المسلمين الذين شدوا ثقافة الغرب .

أما حُكّام العرب ففئتان :

فئة تُهمل الدين باسم التقدّم ، ولا تعمل على نشره أو إفهامه ، أو اتخاذه ينبوعاً للتشريع وسبيلاً الى التقدّم الصحيح . أو تستعيض عنه بمذاهب غربيّة حديثة .

وفئة مؤمنة مخلصة تحاول جهدها تطبيق النظام الإسلاميّ وإحياءه . وقد قامت المملكة العربية السعودية على الدعوة الى الإسلام الصحيح والتعريف به . واتخذت القرآن الكريم دستوراً لها . والمرجوّ أن تثمر جهودها ، وأن تعيد للجزيرة العربية المؤمنة سيرتها الأولى فتكون مبعث الدين ومناط اليقين .

وقد طلب الينا كثيرون من العلماء الأصدقاء ، في البلاد العربية والإسلامية ، أثناء زياراتنا العديدة لها ، أن نضع كتاباً موجزاً مبسّطاً . نوضح فيه المبادىء العامة التي قام عليها المجتمع الإسلامي في ظل العدالة . على نحو ما يعرض علماء الغرب مذاهبهم . ليكون سهل المنال قريباً من الأفهام . فبادرنا الى ذلك ، لعلمنا أن العرب أحوج ما يكونون اليوم الى مثل هذا الكتاب .

فالعرب لن ينطلقوا الى الامام ، ويتحرّروا من عبادة الأشخاص ، وينفضوا عنهم ذلّ النكبة والنكسة ، والتأخر والتخلف ، ولن يعودوا الى

عزتهم ويستعيدوا قوّتهم ، ويقضوا على المذاهب التي تسعى لوضعهم في الأغلال وهدم دينهم، تقول لن يُتاح لهم كل هذا اذا لم يعرفوا تراثهم، ويفهموا شريعتهم ونظامهم الذي يُعدّهم للحياة ، ويستعيدوا شخصيّتهم وخصائصهم . فالخطوة الأولى تبدأ من هنا .

إن هدفنا ، بهذا الكتاب ، هو توعية العالم العربي والإسلامي . فلا بدّ من هذه التوعية لإعادة تحقيق أفكار الإسلام وقيمه . ولا يتأتّى ذلك إلا بمعرفة تلك القيم والأفكار قبل كل شيء . ثم لا بدّ من إعداد المسلمين جميعاً نفسانياً ، وسكب الاحساس الدائم بالخطر الشيوعي في أعصابهم ، وزرع ذرات متفجرة من المقاومة في نفوسهم . فالاحساس الدائم بالخطر ، والمعرفة العميقة بالقيم ، هما سبيل الانقاذ والحياة .

ولعل الذين يجهلون « نظام الإسلام » يجدون في كتابنا هذا الطريق السهل الى ادراك « القيم الحضارية والإنسانية في الإسلام ». هذه القيم التي طُبقت خلال عصور طويلة وأثبتت صلاحها ، ولم يستطع أيّ مذهب آخر ، حتى أيامنا ، أن يُساميها في الصلاح الكمال .

بيروت — **صلاح الدين المنجد**

ربيع الأول ١٣٨٩

حزيران ١٩٦٩

تمهيد

لكي ندرك حقيقة النظام الاسلاميّ لا بدَّ لنا من أن نقدّم صورة موجزة لما كان عليه العرب، قبل مجيء الاسلام.

فقد ساد الظلمُ طوال العصر الجاهليّ، فذاقَ العربُ من ويلاته الكثيرَ، كان الأمرُ فيه للقوة وحدها: فالقويُّ في السلاحِ أو المالِ أو النسبِ كان هـو السيّد المُطاع. وحيث تكون القوّةُ، دون رادع خُلقيّ، يولد الظلم ويترعرع. فكان القويُّ يظلمُ الضعيف، والغنيُّ يستبدّ بالفقير. وتنوّعت ألوان الظلم، حتى صار هدفاً لمن أراد أن لا يُستَضعَفَ أو يُهان. وقد عبَّر عن هذا الشاعرُ الجاهليّ زهيرُ بن أبي سُلْمى فقال:

وَمَنْ لا يذُدْ عن حوْضِه بسلاحِهِ
يُهدَّمْ، ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظلمِ

قال الأصمعيُّ في تفسير هذا البيت: «أيْ مَنْ كفَّ عن الناس (أذاه)، ركبوه وظلموه»[1].

(١) شرح ديوان زهير، ص ٣٠.

وبيتُ زُهير تصوير صادق لحالة الجاهلية في الظلم ، ودعوةٌ صريحةٌ اليه . ونجد إشارة أُخرى الى ظلم الجاهلية في حديث جعفر ابن أبي طالب للنجاشي عندما هاجر المسلمون الى الحبشة . فقد وصف له ما كانوا فيه فقال : « كنا قَوْماً أهل جاهليّة . . . نأتي الفواحش ، ونقطعُ الأرحامَ ، ونسيءُ الجوارَ ، ويأكلُ القويُّ منا الضعيفَ ... »[١] . فكلُّ واحدة من هذه الفقرات التي ذكرها جعفر تدلُّ على لونٍ من ألوانِ ظُلم الجاهلية . وما كانت هجرةُ المسلمين الى الحبشة ، ثم هجرةُ الرسولِ الى المدينة إلا بسبب ظُلمِ الجاهلية . قال جعفرُ في تتمة حديثه للنجاشي : « فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيّقوا علينا ... خرجنا الى بلدك »[٢]

ووصفهم آخر فقال : « كانوا يسفكون الدماءِ ، ويُخيفون الطُرق، وينتهبون الأموال ، ويتعاطون كبار الآثام »[٣] .

وهذا يدلّ على أن الظلم كان سائداً ، داخل الجزيرة العربية . والنصوص الدالّة على ألوان الظلم كثيرة وافرة .

ولم تكن البلاد المحيطةُ بالجزيرة ، بدياناتها وحضاراتها ، منزّهةً عن الظلم . فقد كان الظلم سائداً في أنظمة الدولة البيزنطية في

---

(١) و(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، الجزء الأول .

(٣) العامري ، مناقب الاسلام ص ١٧٣ .

الشام، وأنظمة الأكاسرة في العراق . ضرائب فادحة ، وعبودية جائرة ، واضطهاد دائم ، واضطراب قائم[1] ، حتى إن الكثيرين من أهل البلدان التي فتحها المسلمون فيما بعد رحّبوا بالعرب أو ارتضوا الاسلامَ ديناً لأن نظام الاسلام كان أرحم بهم وأكثر رأفة من أنظمة فارس والروم . وقد أجمع المؤرخون المسلمون والأجانب على ذلك[2] .

---

(١) انظر مثلاً حالة المجتمع في ظل الاكاسرة في : كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .

(٢) انظر مثلاً ما كتبه فيليب حتي ، في تاريخ العرب المطوّل ، الجزء الاول ، ص ١٩٤ .

المجتمع الإسلاميّ ودعائمه

وجاء الاسلامُ ، فكان إصلاحاً اجتماعياً وأخلاقياً ، عميق الأثر . فقد سنّ نظاماً جديداً وجّهه للناس جميعاً ليبني به مجتمعاً إنسانياً جديداً ، لا عربياً فقط ، يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الجاهلي الوثني ، وعن المجتمع في ظلّ الديانات الأخرى . لقد أبطل بنظامه كل ما كان في تلك المجتمعات من نقائص ومساوىء ، ودعا الى الحياة .

فلننظر الآن ما هي الأسس التي قام عليها هذا المجتمع الاسلامي الانساني :

١ ـ هذا المجتمع يُوحِّدُهُ الإيمانُ بالله

فالمجتمع الاسلاميّ يتألف من « مؤمنين ومؤمنات » . والمؤمن هو مَنْ آمن بالله وحده، ربّاً وخالقاً . فلا شيء أحطّ للعقل من أن يعمى عن وجود خالق للانسان وللكوْن ، وكلّ شيء يدل على وجوده . وكذلك لا شيء أحطّ للعقل من أن تعبدَ شيئاً لا يُبدِعُ ولا يضرُّ

ولا ينفع . أو شيئاً آدمياً مثلك ، أو شيئاً أقلّ شأناً منك ، كحيوان أو نارٍ ، أو صنم ، أو صورة . فلا بدّ أن تعبد الهاً ليس كمثله شيء لكي يكون جديراً بالعبادة .

فالايمانُ بالله الواحد هو أول دعائم الوحدة الروحية في المجتمع الاسلامي ، فانه اذا خالط القلوب ، قوي المجتمع ، فلا ينقضه شيء . وهذا الايمان يستنير بالقرآن ، وبما أمر به الرسول . فهما الدليل الى خير المجتمع . « إن هذا القرآن يهدي للّتي هي أقومُ »[1] « كتابٌ أنزلناه لنُخرج الناسَ من الظلمات الى النور بإذن ربهم »[2] .

وهذا الإيمان يعتمد ، قبل كل شيء ، على الوجدان والقناعة ، ولا يُفرض بالقوة ولا بالسلطان .

وبموجب هذا الإيمانُ يقوم المجتمع الاسلاميّ بما فرضه الله عليه من عبادات ، من صلاة وزكاة وحج ، ويبتعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطَن ، وعن الخبائث التي تضر النفس والمجتمع من خمر ، وزنا، وربِاً ، ومطاعم خبيثة .

ويقومَ بكل ما شرّعه الاسلام لحياة المجتمع الاسلامي وهناءة أفراده . ولتبقى كلمة الله هي العليا ، وإنما كلمته هي « دينُه القيّم » الذي جاء به الرسول لينظِّم الناسَ ، ويهديهم سواء السبيل .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ٢

٢ — هذا المجتمع قائم على العدل واليسر في كل شيء

لقد قامت شرعة الاسلام كلها على العدل ومحاربة الظلم. فنحن نجد الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث تلحّ على منع الظلم أوّلاً والتحذير منه. فالله تعالى يقول: «والله لا يحبُّ الظالمين»[١]، «وأعْتَدْنا للظالمين عذاباً أليماً»[٢] «وسيعلمُ الذين ظلموا أيّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون»[٣]. وجاء في الحديث القدْسيّ «يا عبادي! إني حرّمت الظلمَ على نفسي، وجعلته محرّماً بينكم فلا تظالموا»[٤]، وقال رسول الله: «الظلمُ ظلمات يوم القيامة»[٥].

وكذلك نجد الآيات والأحاديث تلحّ على العدل وتدعو اليه. وقد عبّر القرآن للأمر بالعدل بكلمتين هما: «العدلُ» و«القسط»، وكلتاهما بمعنى واحد، وهو الانصاف والاعتدال.

والأمر العظيم الذي أتى به الاسلام أنه جعل من صفات الله عزّ وجلّ الذي يعبده الناس «العدل». ولا نجد هذه الصفة لله في مفهوم اليهود ولا النصارى، فهو، جلّ وعزّ، في المفهوم الاسلامي العادلُ المطلق. ومن أسمائه «المقسط»[٦] أي العادل: «شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، والملائكةُ، وأولو العلمِ قائماً بالقسط»[٧].

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٧
(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٧
(٣) سورة الشعراء، الآية ٢٢٧
(٤) رواه مسلم
(٥) رواه الشيخان والترمذي
(٦) ابن الأثير، النهاية ٣ — ٦٠
(٧) سورة آل عمران، الآية ١٨

ومن الطبيعيّ أن يكون دينُ الله العادلِ هو العدلُ: « وتمّتْ كلمة ربّكَ صِدقاً وعدلاً لا مبَدّل لكلماته »[1]. وقد أرسل النبيّ محمداً عليه السلام ليعدل بين الناس « فادْعُ واستقِمْ كما أُمرْتَ، ولا تتّبعْ أهواءهم، وقلْ آمنتُ بما أَنزلَ الله من كتاب، وأُمِرتُ لأعدِلَ بينكم. الله ربُّنا وربكم »[2]

الرسول جاء لينفذ العدل

وقد أمر اللهُ الرسولَ أن يبين للناس أنَّ الله أمر بالعدل: « قُلْ أَمَرَ ربّي بالقِسْط »[3]، - « إنّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسان »[4]. ثم طلب اليه أن يأمر الناسَ باتخاذ العدل أساساً في أمورهم كلّها، وأن يتّبعوا الحقّ دائماً، لا يمنعهم عن ذلك مانع، حتى ولو كان ذلك ضد أنفسهم أو أقربائهم، وأن لا يهجروا العدلَ ولو كان بينهم وبين الآخرين عداوة. وقد ظهر ذلك في آيات متعدّدة: « يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قَوّامينَ بالقِسْطِ، شُهداءَ لِله، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربَين.. فلا تَتّبِعوا الهوى أن تَعْدِلوا.. »[5].

« يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لِله، شُهداءَ بالقِسْط، ولا يَجْرِمنّكُمْ شنآنُ قَوْمٍ على ألا تَعْدِلوا. إعدِلُوا هو أقربُ للتقوى،

(١) الأنعام، الآية ١١٥
(٢) الشورى، الآية ١٥
(٣) الأعراف، الآية ٢٩
(٤) النحل، الآية ٩٠
(٥) سورة النساء، الآية ١٣٥

وأتقوا الله »[1] « وإذا قُلْتُمْ فاَعْـدِلوا . ولو كانَ ذا قُرْبى . وبعَهْد اللهِ أوْفُوا ... »[2] .

العدل في الأحكام ، في المجتمع

بعد أن قرّر القرآن هذا المبدأ العام بوجوب أتخاذ العدل أساساً لكل شيء ، ألحّ على العدل في الأحكام . والأحكامُ إنّما تتعلّقُ بالحقوق ، أي حقوق المؤمنين بعضهم على بعض أو من بعض ، وحقوق الله على عباده . فأمر الرسولَ أن يحكم بالقسط « وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقِسْطِ ، إنّ الله يحبُّ المقْسطين »[3] . وأمر الناس بذلك فقال تعالى : « إنّ اللهَ يأُمرُكُمْ أنْ تؤدّوا الأماناتِ الى أهلها وإذا حَكَمْتُمْ بيْن الناسِ أنْ تحكموا بالعدْلِ ...»[4] ، وقال رسول الله : « أحبُّ الخلْقِ الى الله إمامٌ عادلٌ ، وأبْغَضُهم اليه إمامٌ جائر . »[5] . وقال : « أوصاني ربّي بتسع وأنا أوصيكم بها . فذكر منها : العدلُ في الرضا والغضب »[6] .

لقد أنزل الله شريعةً واحدةً تُطبّق على الجميع . لا فَرقَ بين إنسانٍ وآخر ، حاكماً كان أو رعيّةً ، قوِيّاً أو ضعيفاً ، غنياً أو

---

(١) المائدة ، الآية ٨

(٢) الأنعام ، الآية ١٥٢

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٢

(٤) سورة النساء ، الآية ٥٨

(٥) رواه أحمد في مسنده

(٦) رواه الشيخان .

فقيراً . فالقانونُ إذا لم يكنْ للناس جميعاً ، تُطَبَقُ عليهم أحكامُه على السواء ، فلا خيرَ فيه للمجتمع ، ويكون ظُلماً . وإذا ارتفع العدلُ بين الناس ، صارَ الناسُ أصنافاً وطبقاتٍ ، ونَبَتَ الحقدُ في صدورهم ، ونمتِ الكراهيةُ في نفوسهم ، فأدّى ذلك إلى هلاكهم جميعاً . قال رسول الله : « إنّما أهلكَ الذين مِنْ قَبْلكم أنّهم كانوا إذا سَرَق الشريفُ تركوه ، وإذا سَرَق منهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ . وأيْمُ الله . لو أنّ فاطمةَ بنتَ محمّد سَرَقَتْ لقَطَعْتُ يَدَها »[١] .

العدل في الأسرة

والى جانب الحثّ على العدل في الأحكام ، خصَّ الإسلامُ الأسرةَ وهي نواةُ المجتمع ، بنصٍ خاصٍ يوجبُ العدلَ فيها . فقد أحلّ اللهُ الزواج بأربع نساء ، تنظيماً للحياة الجنسيّة التي كانت مضطربة فاسدة فى الجاهلية، وكبحاً لفوران شهوة العرب الى المرأة. لكنّه اشترطَ العدلَ بينهنّ . «فإنْ خِفْتُم أنْ لا تَعْدِلوا فَواحِدَة»[٢] . ثم أفصح القرآنُ أنّ من الصعْب العدْلَ بين النساء «ولَنْ تَستَطيعوا أنْ تَعْدِلوا بين النساءِ ولو حَرَصْتُمْ»[٣] . فجعل العدلَ بين أربع

---

(١) رواه الشيخان ، زاد المسلم ١ / ٩٧
(٢) سورة النساء ، الآية ٣
(٣) سورة النساء ، الآية ١٢٩

نساء معاً في وقت واحد ، أمراً غيرَ مُسْتَطاع ، وهذا إيماءٌ للناس أن لا يتزوّجوا أربع نساء معاً . وليس العدلُ الذي قصده القرآنُ في الامور المادّية كالإطعام . واللباس ، والمسكن ... ، بل في الأمور العاطفيّة أيضاً من حبّ أو مَيْل أو كره . قال رسولُ الله : «مَنْ كانت له امرأتان يميلُ لإحْداهُما على الأُخرى جاءَ يومَ القيامة يَجرُّ أَحدَ شِقَّيْه ساقِطاً أو مائلاً .»[1] .

ولقد ضرب رسولُ الله ، عليه السلام ، المثل الأعلى في عدله بين الناس ، وعدله بين نسائه ، مما هو مفصّل في كتب السيرة والحديث[2] .

وأوجب الإسلامُ العدلَ بين الأولاد . ففي الحديث : « إتّقوا الله ، واْعدلوا في أولادكم »[3] . ونصّ الإمام ابنُ حزْم على أنه لا يحلُّ لأحدٍ أن يَهبَ أو يتصدّق على أحدٍ من ولده حتى يُعطي أو يتصدَّق على كلّ واحدٍ منهم بمثـل ذلك . ولا يحلّ له أن يفضّل ذكراً على أنثى ، ولا أنثى على ذكر . فإن فعلَ فهو مفسوخٌ أبداً »[4] .

واذا تتبعنا جميع تنظيمات الاسلام المــالية والاجتماعية وجدنا العدل أساساً لها . حتى قال ابن قيّم الجوزية : « الشريعة . . . عدلٌ كلها ، ورحمةٌ كلها ، وحكمةٌ كلهـا . فكلّ مسألة خرجت عن العدل

---

(١) رواه أحمد في مسنده

(٢) انظر مثلاً زاد المسلم ٤ – ٤٢٩

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) معجم فقه ابن حزم ١ – ٣

الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدّها ، وعن المصلحة الى المفسَدَة ، وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة »[1] .

* * *

العدل لغير المسلمين

لكن النـــاسَ الذين أرسل الرسولُ عليه السلام لهدايتهم ، لم يدخلوا جميعاً في دين الإسلام . ففيهم كثيرون من أهل الكتب السماوية السابقة . فجاء الإسلامُ يوصي أن نكون عادلين معهم وبارّين لهم : « لا ينْهاكمُ الله عن الذين لم يقاتِلوكمْ في الدين ، ولم يخرجوكمْ منْ ديارِكم أن تبرُّوهم وتُقْسطوا اليهم ، إنَّ الله يحبُّ المقسطين »[2] . ومن نتائج هذا العدل وَجبَتْ لأهل الذّمة الحماية والرعاية ، لأنهـــم في خفارة المسلمين وفي جوارهم ، فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يعتدي عليهم أو يصيبهم بسوء .

الخلاصة عن العدل

هكذا نرى أن الإسلام هو دينُ العدل وقـد جعل الفقهاء من معاني « المسلم » : المستسلمُ للعدل والحق . ولم يوصِ دينٌ من الأديان بالعدل كما أوصى به الإسلام . لأن الإسلام اتخذه ، بعد التوحيد ، أساساً للشريعة . ولم تطمح الانسانيّـهُ جمعاء ، ولن تطمح ، في عصورها

(١) أعلام الموقعين ج ٣ - ص ١

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ٨

السابقة واللاحقة ، بشيء أرْفعَ من العدل . وقد عجزت الأديانُ والمذاهبُ الإقتصادية والسياسيّةُ حتى يومنا هـذا عن الإتيان بنظامٍ أساسُه العدلُ الصحيحُ والحقُّ الواضح ، يمكن تطبيقه ، ولقد استطاع الإسلام ذلك . وسنرى في الصفحات القادمـة ، نتائج هذا العدل في المجتمع الإسلامي .

اليُسْر رافق العدل في الشرع

وكما بُني الإسلامُ في أساسه على العدل ، كذلك بُني على مبدأ آخر هو اليُسْرُ . فليس الإسلام ديناً يثقلُ على المؤمن ، أو يُكرهه الى أمور لا يستطيع حملها . فقال الله تعالى (وما جَعلَ عليكمْ في الدين من حرَج)[1] ، وقال : (ما يريدُ الله ليجْعلَ عليكمْ من حرَج)[2] ، وقال : (يريدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يريدُ بكمُ العسْر)[3] . لذلك نرى اليُسر واضحاً فيما شرّعه الدين ، ونرى الرفق والرحمة بالمؤمن (فمن اضطُرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثْمَ عليه)[4] وقال الرسولُ : « أحبُّ الدين الى الله الحنيفيّة السمحة »[5] .

وقد حثَّ الرسول عـلى التيسير دائماً « سكّنوا ولا تُنفّروا ، ويسّروا ولا تُعسّروا »[6] . وقد وصفت عائشة رسول الله فقالت :

---

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨
(٢) سورة المائدة ، الآية ٦
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٥
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٣
(٥) رواه البخاري
(٦) رواه الشيخان ، زاد المسلم ٤ / ٣٥٤

« ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً »[1] .
وكان رسول الله يقول : « إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تُبغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المُنْبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً أبقى »[2] . وقال : « إن الله يحبُّ أن تُؤتى رُخصه »[3] .

فكل هذه الآيات والأحاديث تدل على روح اليسر ، التي قام عليها الاسلام . ومن اليُسر ، التوصية بالرفق والأخذ به دائماً . قال رسول الله : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه »[4] والرفق اللطف ، ولين الجانب والبعد عن العنف . وقال رسول الله : « يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله »[5] .

والى جانب الرفق جاءت الدعوة الى الرحمة . الرحمة بالانسانية عامة . قال عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا مَنْ في الارضْ يرحمكم مَنْ في السماء »[6] . وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[7] ، وحدّد رسول الله أنه إنّما بُعث رحمةً للناس فقال : « انما بُعثت رحمة ولم أبعثْ عذاباً »[8] .

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه الشيخان
(٣) رواه أحمد من حديث ابن عمر
(٤) رواه مسلم عن عائشة
(٥) رواه الشيخان ، زاد المسلم ٤/ ٢٢٩
(٦) رواه الشيخان
(٧) رواه الشيخان
(٨) رواه البخاري في التاريخ

٣ — أعضاءُ هذا المجتمع مُتَساوُون

قبل أن يأتي الإسلام كان هناك أمورٌ كثيرةٌ تجعلُ الناسَ غير متساوين، مثلُ شَرَفِ الأُسرة أو القبيلة، أو الثراءِ والغنى، أو الجنس، أو اللون. فجاء الإسلام يُبْطِلُ هذه الفوارق. وكلَّ ما ينتُج عنها.

الاسلام يحقق المساواة

فالشريف في قبيلته ليس أحسنَ من أيّ فردٍ من أفرادها، وليس الغنيُّ خيراً من الفقير، وليس الأبيضُ خيراً من الأسود أو الأصفر، وليس العربيُّ خيراً من التركي أو الفارسيّ. إنهم كلهم سوآء.

لأن منشأ الناس جميعاً متشابه، «من نطفة»، ومن «ذَكَر وأنثى». ونهايتهم جميعاً إلى التُّراب. «يا أيُّها الناسُ إنَّا خلَقْناكم منْ ذَكرٍ وأنثى، وجعلْناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا»[١] — «أيُّها الناسُ! إنَّ ربّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلّكم لآدَمَ، وآدمُ من تُراب»[٢]. وجاء في الحديث: «الناسُ سواسِيَةٌ كأسنان المشط»[٣].

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣

(٢) خطبة الوداع

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي

وقد ظهرت هذه المساواة عملياً بشكل واضح جداً .

فالمسلمون جميعاً يعبدون إلٰهاً واحداً هو الله ، لا إله لهم غيره . يدعونه ويتّجهون إليه رأساً بلا واسطة ولا شُفعاء . وليس هناك آلهةٌ متعدّدةٌ مختلفة يتفاضَلُ بعضُها على بعض ، يُصَوَّرُ بعضُها ، أو يُجعلُ بعضها من ذهبٍ أو نحاسٍ أو تمرٍ .

وفي الصلاة يقفُ المسلمون جميعاً ، صفاً واحداً ، جنباً إلى جنب ، لا يتأخر الفقير لأنه فقير ، ولا يتقدّم الغنيُّ لأنه غنيٌّ ، بل يقف الفقيرُ إلى جانب الغنيّ ، والأبيض بجانب الاسود ، والكبير بجانب الصغير .

وفي الحجّ يخرج المسلمون جميعاً ، لابسين لباساً واحداً ، منادين نداءً واحداً ، متجهين الى ربٍّ واحد .

وفي الزكاة يدفعون نسبةً واحدة ، لا تنقُص من الغني ولا تزيد عند الفقير ، وإنما تنقص أو تزيدُ بمقدار ما يملكُ كلّ واحد من المال . فمن زاد ماله زادت زكاتُه ، لينتفع بها المجتمع .

وفي الصيام يصومُ المسلمين جميعاً .. في شهر واحد ، وبشكل واحد. لا يُسْقِطُ الصيامَ عن أحدٍ غناهُ ولا مركزه ولا حسبُه ، ولا يزيدُ فيه فقْره أو زُهدُه .

وفي القضاء يقف المتخاصمان معاً ، المدّعي والمدعى عليه لا يميّز الواحدَ من الآخر شيء ، مهما كانت منزلتهما ، وتطبّق عليهما الاحكام، لا فرق بين رجلٍ ورجل . حتى إن أصغر رجل من الرعيـــة ليستطيع أن يُقاضي الخليفة أو الملك أو السلطان أو الأمير وأن يقف معه أمام القاضي يطلب منه حقّه .

ولعلّ مـن أكبر دلائل المساواة أن المسلمين تتساوى وتتكافأ دماؤهم . فقد كانت قريش في ذروة العرب ، وكانت باهلةُ من أدنى العرب . فلو قَتَلَ قُرَشِيٌّ رجلاً من باهلة لقُتل به . سأل الأشعثُ بن قيس رسولَ الله فقال : يا رسول الله ، أتتكافأ دماؤنا ؟ قال : نعم . ولو قتلتَ رجلاً من باهلة لقتلتك[1] .

وحتى بعد الموت ، يُدفنون جميعاً في التراب ، في قبور وحفر متشاكلة ، وبشكل واحد معروف .

---

(١) ابن كثير ، البداية ٩ — ١٦٩

٤ ـ أعضاء هذا المجتمع يتفاضلون بالتقوى

لكنّ هؤلاء الناس جميعاً إذا كانوا متساوين سواسية ، فإنما يتفاضلون بأمر آخر .

فهم جميعاً مدعوون إلى الإسهام في بناء المجتمع الإسلامي المؤمن . فالذي يعمل لهذا المجتمع أكثر من غيره فهو خيرٌ منه وأفضل .

وقد وضع الله « التقوى » أساساً لهذا التفاضل : « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكُم »[1] ـ « يا أيُّها الناسُ ، إن ربكم واحدٌ ، وإن أباكم واحدٌ ... ألا لا فَضلَ لعربيّ على عجمي ، ولا لعجمي على عربيّ ، ولا لأحمرَ على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلاّ بالتقوى »[2] .

معنى التقوى

فما هذه « التقوى » التي يتفاضلُ الناس بها ؟

التقوى مُشْتَقَّةٌ من فعل « وَقى » ، تقولُ : اتقيْتُ الشيءَ تقىً ، وتَقِيَّةً ، وتِقاءً . أي حذرتُه . والاسم هو « التقوى » . فيكون

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣
(٢) خطبة الوداع

معنى التقوى : « الحَذَر » ويكون المقصودُ منها في الآية وفي كلام الرسول : « الحذرُ مما حرّم الله من أمور » .

إنّ الله حرَّم الشرَّ مُطلَقاً . وحرّم كل ما يسيء إلى نفس الإنسان ، وإلى المجتمع الإنساني الذي يعيشُ فيه .

فكلّما ابتعدتَ عن الشرّ ، وحذرتَ ما يضرُّك ويضرّ المجتمع المؤمن حولك ، وأقبلتَ على الذي ينفعك وينفع مجتمعكَ ، فأنت تقيّ .

وليس التقوى ، عندي ، الانصراف الى أمور سلبية : كالزُّهد المتطرّف والانقطاع عن الحياة ، وليس التقوى ، أيضاً في كثرة صلاةٍ أو صيام أو تسبيح ، وإهمالٍ لنفسكَ ولمن حولك من المؤمنين، فهذه أنانيّة .

لكنّ التقوى تكون في الحذَرِ من كل شرٍّ ، والإقبال على كل خير. إنها عمل الخير لنفسكَ وللناس جميعاً . فكلّما أخذت من أسباب عمل الخير كان لك فضْلٌ على غيرك .

فأنت إذا أخذتَ في العلم ، وأوتيتَه ، ونشرْتَه بين الناس ، كنت أفضلَ ممن لا علمَ عنده ينفع به نفسه والناس . « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجات »[1]

(١) سورة المجادلة ، الآية ١١

وإذا أخذتَ في العمل ، وعملت « عمـــلاً صالحاً » أي أنتجتَ ما ينفعك وينفعُ الناس معاً ، فأنت أفضل ممن لا يعمـــل . لأنك بعملك هذا تضمن الحياة الطيبـة التي جاء الإسلام ليجعلك تحياها « مَنْ عمل صالحاً مِنْ ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُحْيِيَنّه حياةً طيّبة »[1] . وليس العمل الصالحُ صلاتَكَ وصومكَ ، بل يجب أن تعمل الى جانب ذلك ، ما ينفع الناس المؤمنين .

وإذا جدّدْت وكسبت مالاً بعملك وعرَق جبينك ، وأفدْت بهذا المال نفْسكَ وأهلك ومجتمعك ، فأنت أفضل ممن لا يكسب ، بل يطلب ويستعطي ، وأفضل ممن يكسب ويشحّ فلا يُعطي .

فخير النفس في الإسلام مقرون بخير الناس دائماً ، وميزان الخير هو الابتعادُ عن الشرّ ، وعما حرّم الله من أمور .

وهـــذا المفهوم للتقوى من أنها « العمل الصالح » أدركها الأقدمون . قال طَلْقُ بن حبيب العَنزي التابعيّ : تقوّوا بالتقوى . فقيل له : صف لنـــا التقوى . فقال : التقوى هي « العملُ » بطاعة الله[2] .

وكذلك أدركوا أن التفاضل يكون بالعمل للمجتمع . قال الأشعثُ بن قيْس يومـاً لقومه ، وكان أمير كندة في الجاهلية ، وسيّدها في الإسلام : « ليس لي فضلٌ عليكم ، لكني أبسط لكم وجهي ،

(١) سورة النحل ، الآية ٩٧ (٢) ابن كثير ، البداية ٩ — ١٠١

وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوط حريمكم. فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومَنْ زاد عليه فهو خيرٌ مني، ومن زدتُ عليه فأنا خيرٌ منه[١]».

يؤيد هذا كله قوله عليه السلام: «خيرُ الناس أنفعُهم للناس»[٢].

وعلى هذا يكون الناسُ في الإسلام متساوين من حيث المنشأ والجنس، واللون، والعقيدة، والإيمان، وفي الواجبات، والحقوق، لكنهم يتفاضلون بعملهم: «انما يقدّس الإنسان عمله» قال ذلك سلمان الفارس لأبي الدرداء. ونتاجهم، وكسبهم وما يقدمونه للمجتمع المؤمن حولهم، كل ذلك حسب مواهبهم التي لا يمكن قطّ أن يتساووا فيها، لأن العقول تتفاضل، والأفهام تتفاوت، مهما هيّأت للناس من فرص مادية واحدة: «اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له»[٣].

والمرأة مساوية للرجل

وقد جعل الإسلام المرأة عضواً في المجتمع الإسلامي مساوياً الرجل. ففي آيات كثيرة نجد النساء يُذكَرْن الى جانب الرجال، ويخاطَبن كما يُخاطبون. «والمؤمنون والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعض»[٤]، «وعدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنّات»[٥]، «واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات»[٦].

---

(١) المصدر السابق
(٢) رواه الطبراني
(٣) رواه أحمد، والطبراني
(٤) سورة التوبة، الآية ٧١
(٥) سورة التوبة، الآية ٧٢
(٦) سورة محمد (ص) الآية ١٩

وقد حلّ الإسلام بهذه المساواة مشكلة الطبقات في المجتمع الانساني، التي قامت على أسس توجب الظلم. فالناس في مجتمع الإسلام، على ما وصفهم الرسول «سواسيةٌ كأسنان المشط».

٥ — لا عبودية في المجتمع الإسلامي. المسلمون أحرار

كما أنّ العدل يقضي أن يكون الناس متساوين، كذلك يقضي أن يكونوا أحراراً. وقد عبّر عمرُ بن الخطاب عن هذا المبدأ الإسلامي بقوله: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». فلا عبودية في الاسلام بين الناس.

ومن نتائج هذا المبدأ أننا نجد الإسلام أولَ دين، وأولَ نظام اجتماعي في الدنيا، حاول إيجاد حلّ لمشكلة الرقيق التي كانت قائمة في العصر الجاهلي عند العرب، وعند أمم أخرى غيرهم. فقد أبطل أسبابَ الاسترقاق الجاهلية، ومهّد وحثّ على إبطال الرقيق وتحرير العبيد بوسائل شتّى. قال الرسول: «مَنْ أَعْتَقَ رقبةً مؤمنة أعتق الله بكل عضوٍ منها عضواً من أعضائه من النار»[(٤)].

وجاء في الحديث: ثلاثةٌ يؤْتَوْن أجرهم مرّتين.. (وذكر

---

(١) رواه البخاري ومسلم، زاد المسلم ٣ ـ ٩٠

منهم :) ورجل كانت له أَمَةٌ فغذّاها فأحسنَ غِذاءها ، ثم أدّبَها فأحْسَنَ تأديبَها ، ثم أَعْتَقَها ، وتزوَّجها"[1] .

فهنا حثٌ شديد على إحسان معاملة الرقيق ، ودعوة شديدة إلى عتقه وتحريره ، ثم دعوة إلى إكرامه بالزواج .

ولقد منع الإسلامُ إهانة الرقيق ، ففي الحديث : « مَنْ لَطَم مملوكاً له ، أو ضَرَبه ، فكفّارته عِتْقُه »[2] . وقد جعل مَنْ ضَرَب عبده أو أهانه من الأشرار . قال رسول الله : « ألا أنبئُكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : من نزل وحدَه ، ومنع رِفده ، وجلد عبدَه »[3]

وجعل الإسلامُ أيضا كفّارة كثيرٍ من الذنوب التي يقترفها الإنسانُ ، تحريرَ عبدٍ من رِقّه .

ولم يقتصر الامرُ بتحرير العبيد على العبيد المسلمين ، بل شمل ذلك تحرير الكتابيّ غير المسلم ، نصّ على ذلك ابن حزم والقاضي عياض[4] .

وعندما يُصبح الرقيقُ حرًّا فلا تبطل الحرّيّةُ عنه . يبقى حُرًّا هو ومَنْ تناسل منه من ذكر وأنثى[5] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه مسلم وأبو داود
(٣) رواه الطبراني
(٤) معجم فقه ابن حزم ص ٩٤ ؛ زاد المسلم ٣ - ٩٠
(٥) معجم فقه ابن حزم ، ص ٤٠٢

وحرية المسلم في مجتمعه الاسلاميّ تظهر في وجوه أخرى .

آ ـ فهناك الحرية السياسية التي تتجلى في مبدأ الشورى . فلا استبدادَ في الرأي من قِبل الحاكم ، ولا قلة تتحكم بالكثرة . بل إن « أمرهم شورى بينهم » . وقد أمر الله الرسولَ أن يستشير المسلمين في الأمور العامة : « وأعفُ عنهم ، وأستغفرْ لهم ، وشاوِرْهمْ في الأمر »[١] .

ب ـ وهناك حرية التفكير والنصْح والنقْد وإبداء الرأي . فالحرية الفكرية مُصانة . وكلُّ مسلم له الحق أن يبدي رأيه في أعمال الحاكم ، وأعمال إخوانه اذا كان فيها ضررٌ على المجتمع المسلم . وله أن ينبّه على الخطأ ويدل على الطريق الحسن . وهذا هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . يفعل ذلك دون أن يخافَ ظُلماً أو تعذيباً أو سجناً . وكثيراً ما نبّه الصحابة الرسول الى أمور ، وظهر له صوابها ، فاتّبعها .

وكذلك فإن له أن يقترح على الحاكم ما فيه الخير للمجتمع . خطب عمر بن الخطاب في الناس عندما أراد القفول من طاعون عمواس فقال : « من علم شيئاً ينبغي العملُ به فَلْيُعْلِمنا نعملْ به ، إن شاء الله »[٢] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

(٢) ابن كثير ، البداية ٧ – ٧٩

جـ ـ وهناك حرية التفكير والاختيار . وقد دعا القرآنُ الناسَ أن يفكّروا ، ويتدبَّروا الأمورَ بعقولهم ، « وقُلِ الحقُّ منْ ربّكم ، فَمَنْ شاء فليؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيكْفُرْ »[1] ـ « نذيراً للبشر، لمن شاءَ منكم أن يتقدَّمَ أو يتأخّر »[2] .

د ـ وهناك حرية التملّك . فانت تستطيعُ أن تملك ما تشاء بالحق ، أي بسعيك ومالك . وليس بالسرقة أو الرشوة أو الاغتصاب . ولا يحق لأحدٍ من الناس ، ولا للحاكم ، أن ينزع حقّ التملّك منك. ولا أن يأخذ مالك إلا برضاك ، لا غصْباً ولا سَرِقةً ولا تأميماً . قال الرسول : « كُلُّ المسلم حرام : دَمهُ ، ومالُه ، وعرضه »[3] . ولا تُقيَّد الملكية إلا إذا أدّى استعمالها الى الإضرار بالغير .

ولا خوْف من أن يزيد مالُك مهما زاد ، ولو بلغ الملايين ، ما دُمت تقوم بواجبك نحو المجتمع الذي تعيش فيه فتؤدّي الزكاة وتنفق على الفقراء والمساكين ، وتبذل الخير لمن حولك .

هـ ـ وهناك حرية العمل في بلدك ، والسفر في الأرض العريضة للكسب . لا يمنعك من ذلك حاكمٌ ولا قانون . وتدخل كلّ أرض انتشر فيها الإسلام بلا إذنٍ أو رخصة . ولا يحولُ دون حوافزك

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩
(٢) سورة المدثر ، الآية ٣٦ ، ٣٧
(٣) خطبة الوداع لابن حزم ١٠١

للعمل والكسب حائل . « هو الذي جعل لكم الأرضَ ذَلولاً ، فامشوا في مناكِبها ، وكُلوا من رزقه »[١] . فكلّما زاد عملك وكسبُك كان في ذلك النفع لنفسك وللمجتمع الإسلامي .

وبعد هذا كلّه لا يجوز الحجْر على أحـدٍ في حريته أو ماله ، إلا أن يكون مجنوناً يضرّ بجنونه الناس ، أو سفيهاً يضرّ بتصرفاته نفسه وأهله وماله .

و ـ وهذه الحرية حقٌ للمرأة كما هي حق للرجل .

فلها أن تملك ، وتتصرّف بما تملك . ولها أن تُبدي رأيها وتنتقد وتُجادل . وقد نزل القرآن في التي جاءت تُجادل رسول الله . ولها أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ولها أن تعمل وتكسب ، تعمل عملاً لا تضرّ به نفسها أو زوجها وبيتها وأولادها ، ولها أن تتولى وظائف الدولة والقضاء ـ ما عدا الحكم . وأن تشارك في انتخاب الإمام ومبايعته . وأن تخرج الى الغزو والجهاد . فتعمل ما يوافق طبيعتها من تضميد الجراح أو إسقاء الجنود أو صُنع الطعام أو العناية بالمرضى أو إثارة الناس على القتال أو غير ذلك . ولها أن تكون استاذة ومعلمة ، أو تُزاولَ التجارة والصناعة والزراعة . شريطة أن لا يكون فيما تعمله ضرر لها أو لزوجها أو بيتها وأولادها .

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٥

ز ـ وهناك أخيراً ، في هذا المجتمع ، حرية الايمان لغير المسلمين. وهذه نابعة من قوله تعالى (لا إكراهَ في الدين)[1] . والإكراه يكون بالضغط الماديّ والروحيّ . فما دامت تعاليمُ الإسلام واضحة مفصّلة فلغير المسلم أن يتدبّرها ويفهمها . فإن شاء فليؤمن ، وإن شاء فلْيَبْقَ على عقيدته . وقال الله تعالى : « ولو شاء ربُّك لآمنَ مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنتَ تُكْره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ؟ »[2] .

وقد جاءت عجوزٌ نصرانية مرة الى عمر بن الخطاب في حاجة لها ، فلما قضاها دعاها الى الإسلام فابتْ . فخشي أن يكون كلامه إكراهاً لها . فقال : « اللهم إني لم أكرهها . لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشْدُ من الغيّ » .

وحتى المرأة غير المسلمة من أهل الكتاب ، إذا تزوّجها المسلم فلها أن تبقى على دينها .

هذه الحرية مسئولة

لكنّ هذه الحرية التي أوتيها الرجل والمرأة في المجتمع الإسلاميّ لها حدود . وحدودُها تقف عند عدم التجاوز على حقوق الآخرين ، وعند عدم إلحاق الضرر بهم . فانت لا تستطيع باسم حريتك أن تعتدي على حقوق اخوانك في المجتمع المؤمن ، أو تسلب حريتهم ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦
(٢) سورة يونس ، الآية ١٠٠

أو تؤذيهم ، أو تسبب ضرراً لهم . ولا تستطيع باسم حريتك أن تضرّ نفسك ، لأنك جزء من المجتمع .

فالحرية في المجتمع الإسلاميّ مسئولة . أي أن كل فرد مسلم مسئول عن أعماله التي يقوم بها باسم الحرية . « للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا ، وللنساء نصيبٌ مما اكتسبنَ »[1] . لأن الله وهب الرجلَ والمرأة العقلَ ، وأعطاهما ، بالقرآن ، الدليلَ الى الخير ، وأمرهما أن يفكّرا ويتدبرا الأمور . فإذا عملا باسم الحرية ما هو شرٌ على نفْسَيْهما أو على مجتمعهما ، فلا بدّ أن يلقى كلٌّ منهما عقاب ما اقترفه أو جناه .

والعقوبات التي شرّعها الإسلام ليست غايتها إذلال الانسان أو الانتقام منه ، وإنما هي زواجر لإصلاحه وتنبيهه ، خوفاً من فساد المجتمع المؤمن ، وفساده نفسَه ، وكفّاراتٌ عما اقترفه من عمل سيء لا يليق به أن يفعله ، بعد أن أكرمه المجتمع ورعاه . وهذا منطقيٌّ جداً . فما كان من الأعمال السيئة التي ارتكبها متعلّقاً بحقوق الله ، ولم يجاهر بها ، فللّه أن يعفو ويغفر إذا تاب المرء واستغفر « والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومَنْ يغفر الذنوبَ إلا الله ، ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم »[2] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٢

(٢) سورة آل عمران ، ١٣٥ ، ١٣٦

وهـذا القصاص فيه ضمانٌ لبقاء المجتمع وحياته . « ولكُمْ في القصاص حياةٌ »[1] .

ولكن اذا صنع المرء عملاً صالحاً لنفسه وللمجتمع الإسلامي فلا بدَّ أن يلقى ، باسم العدالة ، المكافأة على ذلك من المجتمع نفسه ومن الله . (وأنْ ليْس للانسان إلا ما سعى ، وأنَّ سعْيَه سوف يُرى ، ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأوفى)[2] .

« فمنْ يَعمَلْ مِثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَهْ ، ومن يعملْ مثقالَ ذَرَّة شراً يرَه »[3] .

وميزان هذه المسئولية يقوم على الإيمان ، وعلى الشريعة .

٦ — الأُخوّة الإسلاميّة تَربُط أعضَاء المجتمع الإسلاميّ

فقد حلّت « الأخوّة الدينيّة » محـلّ العنصرية والجنسيّة اللتين كانتا في العصر الجـاهلي . فجاء القرآن يقولُ : « إنمـــا المؤمنون إخوة »[4] ، وجاء في الحديث « المسلم أخو المسلم »[5] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٩
(٢) سورة النجم ، الآيات ٣٩ - ٤١
(٣) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨
(٤) سورة الحجرات ، الآية ١٠
(٥) رواه البخاري ومسلم

ولقد جعلت هذه « الأخوّة » العربَ أمة جديدة ، وجعلت آفاقَ الإسلام أوسع مدىً : صارت آفاقه العالم كلّه لا الجزيرةَ العربية وحدها .

وأوجدت هذه الأُخوةُ أيضاً عند الفرد المسلم الإحساس بالجماعة الإسلامية ومصالحها وخيرها ، وعند الجماعة الإحساسَ بالفرد ومصالحه وخيره ، ونتج عن هذا الإحساس المتبادل تضامنٌ روحيٌّ وتضامن مادي ، هدفهما تمتين هذه الأخوّة وبقاؤها .

رسمَ الله ورسولُه لهذه الأخوّة كل ما يقوّيها ويُبْقيها ويغذّيها . « المسلمُ للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً »[1] أي أن المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكون بنياناً مرصوصاً ، وأن يكون المؤمنون مثل الجسد، وحدة قائمة متشابكة متآلفة ، يعمل كل عضو فيه عمله في سبيل مصلحة الجسد كلّه. « مَثَلُ المؤمنين في توادُدهم وتَراحُمِهم وتعاطُفهم كمثلِ الجَسَد إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهر والحمّى »[2] .

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له ، والبخاري

إن دعوة الرسول إنما جاءت لإحياء الناس حياة طيّبة . لذلك أمرهم الله أن يستجيبوا لدعوته « يا أيُّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحْيِيكم »[١]. فدعوة الإسلام هي دعوة للحياة . وقد نظّم الاسلامُ في دعوته كل ما تدعو إليه وتتطلّبه . كالتنظيم، والبعد عن الفوضى ، وأن لا تتضارب عناصر المجتمع أو تتصارع لئلا تفقد حيويتها أو يقضي بعضُها على بعض ، وكذلك تتطلب الانطلاق في العمل « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً »[٢] ، بتفاؤل وبُعد عن اليأس ، وباستمرار لا ينقطع « أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ »[٣] . وتتطلب العلم ومعرفة الأمور وإتقانها ، وتتطلب المحافظة على الصحة والبعد عن القاذورات ، وتتطلّب الأخذ بالأسباب وعدم الاتكال . وعلى الجملة ما من أمر يُحيي المجتمعَ المسلم إلا وجدنا الإسلام يدعو إليه ، وما من شيء يوصل إلى الانحطاط والوهن والضعف إلا منعه الاسلام . فالمجتمع الاسلامي مثل خليّة النحل حيّة نشيطة منتجة .

---

(١) سورة الأنفال ، الاية ٢٤

(٢) النهاية لابن الأثير ٣٥٩/١

(٣) رواه البخاري ومسلم

٨ ـ المجتمع الإسلامي يحترم النفس الإنسانية ويحميها

إنه يمنع أفراده أن يقتلوا أنفسهم « ولا تقتُلوا أنفسَكم إن الله كان بكم رحياً »[١]. وقال رسولُ الله ناقلاً عن ربه : « بادرني عبدي بنفسه فحرّمتُ عليه الجنة »[٢] ، أي أنه انتحر . وكذلك يمنعهم أن يقتلوا الآخرين « ولا تقتُلوا النفْسَ التي حرَّمَ الله إلاَّ بالحق »[٣] ـ « مَنْ قَتَل نفْساً بغيْر نفْسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناسَ جميعا . ومَنْ أحياها فكأنَّما أحيا الناسَ جميعاً »[٤] . فقتْلُ النفس جريمة ضد الإنسانية كلِّهـا . ومنعَ الاسلامُ أيضاً من قتل الأولاد ، وكان العرب يقتلون أولادهم « ولا تقتلوا أولادكم خشْيَةَ إملاقٍ ، نحن نرزقهم وإيَّاكم »[٥]. وعلى الجملة فالقتل مُنْكَرٌ . « ومَنْ يقتُلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغَضِبَ الله عليه ولَعَنَه ، وأعدَّ له عذاباً عظيماً[٦] ». وكذلك منع الفقهاء قتلَ الجنين وإسقاطـه بعد نفخ الروح فيه .

وليس منعُ القتل محصوراً بأعضاء المجتمع الاسلامي من المسلمين، بل هو يشمل غير المسلمين من أهل الذِّمة . قـال رسولُ الله : « مَنْ

(١) سورة النساء ، الآية ٢٩
(٢) رواه البخاري في آخر بدء الخلق
(٣) سورة الانعام ، الآية ١٥١
(٤) سورة المائدة ، الآية ٣٢
(٥) سورة الاسراء ، الآية ٣١
(٦) سورة النساء ، الآية ٩٣

قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنَّة »[1]. فدم الذميّ مصون، ومن اعتدى عليه يُقْتَصُّ منه.

وحتى في حال الدفاع يجب أن لا يقتل المسلم شيخاً أو طفلاً أو امرأة، إلا أن يبدأوا بالعدوان. فيكون القتل دفاعاً وليس اعتداء.

ولم يقف احترام النفس الانسانية عند منع القتل، بل كان احترامها لذاتها. مرّت جنازة فوقف رسولُ الله. فقيل له: إنها جنازة يهوديّ، فقال: أليست نفساً؟ »[2].

٩ ـــ غايَة المجتمع الإسلاميّ: السَّلام

ان غاية المجتمع الاسلامي تحقيق السلام. فالله سبحانه من أسمائه « السلام ». « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدُّوس السلام »[3]. « والله يدعو الى دارِ السلام »[4]. وقد جعل الاسلام نداء المؤمن للمؤمن « السلام عليكم ». « وإذا جاءَك الذين يؤمنون

---

(١) رواه النسائي

(٢) رواه البخاري

(٣) سوره الحشرة، الآية ٢٣

(٤) سورة يونس، الآية ٢٥

بآياتنا فقُلْ : سلامٌ عليكم »[1] ، وأوجب الرسول على المؤمنين نشر تحية السلام بينهم وردَّ التحية . قال رسول الله : « أيُّها الناس أفشوا السلام ، وأطعِموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، تدخلوا الجنة بسلام »[2] . فالسلام ، أي التحية ، هو الطريق الى السلام – أي الأمن – بين أفراد هذا المجتمع . فكأنّ كل مسلم يقول لأخيه المسلم عندما يلقاه : سلام عليك . لا تخف مني إذىً ، ولا تخْشَ مكروهاً . وهذا التأكيد على إفشاء السلام هو طريق المحبة . قال الرسول : « ألا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببْتم : أفشوا السلام بيْنَكم »[3] . ومن إلحاح الاسلام على السلام جعلُ تحية أهل الجنة السلام أيضاً : « دَعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام »[4] . وأمر الله المسلمين أن لا يتركو السلم . « يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة »[5] . واذن فلا حروب بين أفراد المجتمع ولا حروب بين الدول . ولا يحق للمسلمين ان يبدأوا حرباً .

لكن الاسلام إذا أوجب نشر السلام بين أعضاء المجتمع الاسلامي، ابتغاء نشر المحبة والألفة ، وضمان الأمن والهناءة في الحياة الطيبة التي رسمها لهم ، وأمرهم بالدخول في السلم ، فليس معنى ذلك أن يكونوا ضعفاء أذلاَّء يشغلهم طلب السلام عن القوة ، بل أمرهم أن يكونوا

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٤
(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذي
(٣) أخرجه مسلم
(٤) سورة يونس ، الآية ١٠
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٠٨

جميعاً أقوياء ليدافعوا عن الإسلام ، وليمنعوا اعتداء المعتدين من غير المسلمين وحدهم ، لأن المسلم الصحيح لا يعتدي على مسلم ولا يحمل عليه السلاح . قال الرسول : « من حمل علينا السلاحَ فليس منا »[1] . وقال الله : « وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم »[2] والمؤمن لا بدّ أن يكون قويّاً « المؤمن القويُّ خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف »[3] . والقوّة تكون في السلاح ، وتكون في العلم ، وتكون في المال . وفي كل ما يضمن لك أن لا يعتدي أحدٌ عليك .

وليس للمسلمين أن يعتدوا على غيرهم . قال الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتدوا »[4] . فالحرب في الإسلام هي للدفاع .

وهذا الدفاع عن الاسلام من الخطر الذي يأتيه من أعدائه من الخارج ، أو من المخرّبين المضلّلين في الداخل ، يتمّ بالجهاد في سبيل الله . أي أن المحافظة على الدين ، وعلى بلاد الاسلام ، وعلى المجتمع الاسلامي من العدوان توجب الجهاد . وهو واجب على كل مسلم .

وهذا الجهادُ يكون بالسلاح واليد ، ويكون باللسان والقلم ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد
(٢) سورة الانفال ، الآية ٦٠
(٣) رواه مسلم
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٠

ويكون بالاستنكار . ومن الأحاديث الواردة في الجهاد « أفضَل الجهاد مَنْ قال كلمة حقٍ عند سلطان جائر »[١]

١٠ — المؤمنون في هذا المجتمع أعزة

ما دام الاستعباد لا يجوز على أحدٍ من المسلمين ، فلا بدَّ أن يكون كلُّ مسلم في هـــذا المجتمع الاسلامي عزيزاً لا يذلّه أحدٌ ، ولا يُذلُّ هو أحداً . وعزّة المسلمين جاءت في القرآن « ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين »[٢] . وقد تبرَّأ الرسول من المسلم الذليل « مَنْ أعطى الذلّة نفسهَ طائعاً غير مُكْرهٍ فليس منا »[٣] . وقال الرسول : « لا ينبغي للمؤمن أن يُذلّ نفسه »[٤] .

اذن لا يحقُّ للمسلم أن يكون ذليلاً ، ولا أن يرتضي الذلَّ ، ولا أن يذلّ أخاه المسلم . وهذه العزة راجعة الى أن الله كرّم الانسان « ولقد كرّمنا بني آدم »[٥] ولم يجعله أداة للاستثمار يستثمره شخص أو حكومة .

وليست العزّة هي التكبُّر أو التيه أو البغي ، لكنها ارتفاع

---

(١) رواه ابو داود والترمذي
(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨
(٣) رواه الطبراني
(٤) أخرجه ابن ماجه ، والترمذي
(٥) سورة الاسراء ، الآية ٧٠

النفس عن أعمال المهانة والذل . لذلك أمر الله بالتواضع مع العزّة . قال رسول الله : « إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد »[1] .

١١ ــ المجتمع الإسلامي يُعنَى بالأُسْرة ويَحْميهَا

لا رهبانية في الاسلام ، لأنه تمنع نموّ المجتمع ، لذلك رغّب الرسولُ بالزواج ليزداد المجتمع الاسلامي . قال الرسول : « تناكحوا تكثُروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة». رواه البيهقي . وقال : « شراركم عُزّابكم ، وأراذل موتاكم عُزّابكم »[2] .

جعل الاسلامُ الزواجَ وسيلة لربط الرجل بالمرأة ، وقضى على فوضى الجاهلية في الأمور الجنسيّة ، ورفع من شان المرأة ، وأبعدها عن أن تكون وسيلة للذّة فقط . فقال الله : « ومن آياته أن َخلقَ لكم من أنفسكُم أزاواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة »[3] فقال : « لتسكنوا اليها » ، أي لتطمئنوا ، ولم يقل « لتتمتّعوا » أو « لتلذّوا » . فالمرأة وسيلة للطمأنينة والراحة . والودّ هو الذي يجعل الرابطة قوية بين الرجل والمرأة . وجاء رجلٌ الى النبي فقال :

---

(١) رواه مسلم
(٢) زاد المسلم ٢ / ٢٢٥
(٣) سورة الروم ، الآية ٢١

يا رسول الله ، أصبْتُ امرأة ذات جمالٍ وحسَب ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا ، ثم أتاه الثانية ، فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : تزوّجوا الودود الولود »[١] . وهذا الحديث يلخّص مهمّة المرأة . فهي شريكة للرجل في حياته ، وهي التي تنجب الأولاد للمجتمع . وقد أُوصى الرسولُ الرجلَ أن يعاشر زوجته بالاحسان والمعروف « استوصوا بالنساء خيراً »[٢] ، وقال : « خيْركم خيْرُكم لأهله »[٣] وأوصى النساء بالطاعة والاهتمام بالزوج ، والبيت ، والأطفال .

وجعل الرسولُ « أبغض الحلال الى الله الطلاق »[٤] ، لأن فيه فصماً لعُرى الزوجية .

ووّصى الآباء أن يعدلوا بين الأولاد ، كما أوصى أن يغمروهم بحبهم وعطفهم ، وبرّهم . قال الأقرع بن حابس التميمي ، وهو عند رسول الله : إنَّ لي عشرة من الولد ما قبّلْتُ منهم أحداً . فنظر اليه رسول الله ثم قال : « مَنْ لا يرْحمُ لا يُرحم »[٥] .

ثم وّصى الأولادَ بأبويْهم : « ووّصيْنا الانسانَ بوالديه إحساناً ، حَملَته أمه كُرْهاً ووضعتْه كُرهاً »[٦] ، « وقضى ربُّك أن لا تعبدوا

---

(٤) رواه ابو داود ، والنسائي ، والحاكم وصححه

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) رواه البخاري ومسلم

(٥) رواه البخاري وابو داود والترمذي

(٦) سورة الاحقاف ، الآية ١٥

إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغنّ عندك الكِبر أحدُهما أو كلاهُما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً . واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ مـــن الرحمة ، وقل ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا »[1] .

وأوصى الرسولُ أن يُنْفقَ الولد على أبيه : « إن أولادكم أطيب كسبكم ، كلوا من كسْب أولادكم »[2] . وجاء رجلٌ الى الرسول فقال له : إن لي مالاً ، وإن والدي يحتاج الى مالي . قال : أنت ومالُك لوالدك »[3] وقد ورد في الحديث : الجنة تحت أقدم الأمهات[4].

وفي سبيل المحافظة على طهارة المرأة وعزّتها ، فلا تكون متعةً رخيصة ، يتناقلها الرجال ، حرّم الله الزنا ، وحضّ على الإحصان ومنع البغاء . « ولا تَقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا »[5] وجعل عقوبـة الزنا شديدة قاسية إذا ثبتَ . الرجم للرجل والمرأة اذا كانا مُحصنيْن ، حتى يموتا ، والجلْدُ لغير المحصنين والمحصنات ، مئة جلدَة .

كل ذلك لإعزاز المرأة ، وطهارة الأسرة والمحافظة على الأنساب. وقد منع في سبيل المحافظة على النسب أن ينتسب أيُّ رجل الى غير

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٢٣ ، ٢٤
(٢) رواه ابو داود
(٣) رواه ابن ماجه
(٤) رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه
(٥) سورة الاسراء ، الآية ٣٢

أبيه : « ليس مِنْ رَجُلٍ ادّعى لغير أبيه وهو يعلمُه إلاّ كفر »[1]

ووسّع الاسلامُ هذا التضامُنَ الروحيّ في الأسرة فشمل الأرحام وذوي القُرْبى. فوصّى بصلة الأرحام الروحية، والعناية بهم، وتفقّدهم وعدم الانقطاع عنهم. قال رسولُ الله : « مَنْ سَرّه أن يُبْسَطَ له في رزْقــه ، وأن يُنْسَأ له في أثره (أجله) فلْيَصِلْ رحِمَه »[2]. ورغّب في معرفة الأنساب لصلة الرحم. قال : « تعلّموا من أنسابكم ما تَصِلون به أرحامكم ، فإن صِلَةَ الرحم محبةٌ في الأهل ، مَثْراةٌ في المال ، مَنْسَأةٌ في الأثر »[3]

١٢ — المحبّة تَسُودُ المجتمع الإسلاميّ

وهذا المجتمع قائم على الحب الدائم . وقد حدّد الإسلام مقدار هــذا الحب تحديداً رائعاً. فقال الرسولُ : « لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه »[4]. وجاء في الحديث أيضاً : « إنّ أفْضَل الإيمان أن تُحِبّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك ، وتكره لهم مــا تكرهُ لنفسك »[5]. ولا يحبُّ الإنسانُ لنفسه إلاّ كُلّ خير وسعادة،

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه البخاري ومسلم
(٣) رواه الترمذي وأحمد والحاكم
(٤) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي
(٥) رواه أحمد

فهو اذن يحبّ مثلَ ذلك لأخيه . وكذلك جعل الإسلامُ هذه المحبة من شروط الإيمان ، فقال الرسول : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا. ولا تؤمنوا حتى تحابّوا [1] » . وهذا الحب هو الذي يدفع الى الايثار « ويؤثرون على أنفُسهم ولو كانت بهم خصاصة » [2] لأن الأثرة هي التي تُهلك النفس والمجتمع .

وقد جهد الإسلامُ أقصى جهده أن يكون هذا المجتمع مُنزّهاً عن كلّ ما يُنافي حب المؤمنين بعضهم لبعض . فأدان ومنع ، في سبيل تقوية التضامن الروحي ، كل ما ينقضه من أمراض القلوب :

فلا يحق لظالم أن يحكم المسلمين أو يكون بينهم ، وعلى المؤمنين أن يقضوا عليه . فلا مكان للظلم في مجتمع الإسلام . قال الرسولُ : « إن الناسَ إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمّهم الله تعالى بعقاب » [3] . فهذه دعوةٌ واضحة لإبعاد كل ظالم مستبد.وكذلك لا مكانَ للظلم في المجتمع الإسلامي . قال الرسول : « المسلمُ أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، أو يثلمه » [4] . وقال « لينصرْ الرجلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً . إن كان ظالماً فَلْيَنْهَه ، فإنّه له نصرٌ ، وإن كان

(١) أخرجه مسلم
(٢) سورة الحشر ، الآية ٩
(٣) رواه أبو داود والترمذي
(٤) رواه البخاري ومسلم

مظلوماً فلينصُرْه »[1] . وقال : « مَنْ مشى مع ظالم فقد سعى إلى النار »[2] .

ب ـ ولا يحقّ لمسلم أن يعتديَ على أخيه المسلم أيّ نوع من الاعتداء : ولا أن يُطلقَ لسانه فيه بالسوء ، ولا أن يقذفه بالباطل . سُئِل رسولُ الله : أيُّ الإسلام أفضل ؟ قال : المسلمُ مَنْ سَلِمَ الناسُ من لسانه ويده »[3] . وقال: « سِبابُ المسلم فُسُوق، وقتالُه كفر »[4] . والأعراضُ مصونة . فمن قذف امرءاً عوقب « والذين يؤذونَ المؤمنين بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهْتاناً وإثْماً مُبيناً »[5] .

جـ ـ ويدينُ الإسلام جميع الصغائر التي تقضي على الحب وتُفسد المجتمع . فهو يدين التجسّس بين المسلمين ، قال الرسولُ : « لا تؤذوا المسلمين ولا تَتَبّعوا عوراتهم »[6] . وقال : « من ٱطّلع في بيت قومٍ بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفقأوا عينه »[7] . وقد جاء في القرآن الكريم الأمرُ الصريح : « ولا تجسّسوا »[8] .

ويدين الغيبة ، وهي أن تذكر أخاك بما يكره . « ولا يغْتَبْ

---

(١) رواه الشيخان

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه الشيخان ، والترمذي

(٤) أخرجه الشيخان والترمذي

(٥) سورة الاحزاب ، الآية ٥٨

(٦) رواه ابن ماجه

(٧) رواه الشيخان

(٨) سورة الحجرات ، الآية ١٢

بعضُكم بعضاً ، أيحبُّ أحدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيه ميْتاً ، فكرهتموه »[١] .

ويدينُ النميمة ، وهي أن ينقل الإنسانُ حديثاً سمعه من إنسان أو جماعة . قال رسولُ الله: « شِرارُ عبادِ الله المشّاؤن بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبّة »[٢] . وقال : « لا يدخُل الجنّة قتّات »[٣] . والقتّاتُ الذي يتسمّع على جماعة وهم لا يعلمون ثم ينمّ عليهم .

وكان رسولُ الله ينهى أن يأتيه أصحابُه بأخبار الآخرين قال : « لا يُبَلِّغُني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً. فإني أُحبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر »[٤] .

ويدين سوءَ الظن بالناس . قال الله تعالى : « يا أيُّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ ، إن بعضَ الظن إثم »[٥] .

ويدينُ التباغضَ والتحاسد والتنازع . ففي الحديث : « لا تباغَضُوا ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله اخواناً »[٦] ، وقال الله تعالى : « ولا تَنازعوا فتفشلوا »[٧] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢
(٢) مسند أحمد
(٣) رواه الأربعة
(٤) رواه أبو داود والترمذي
(٥) سورة الحجرات ، الآية ١٢
(٦) رواه الشيخان
(٧) سورة الأنفال ، الآية ٤٦

ويدينُ القطيعة والهجران . « لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »[١] .

ويدين الأثرةَ والأنانية . وقد جعل الرسولُ الأنانيَّ لا يتميّز من الحيوان . جاء أعرابيٌّ فأناخ راحلته ، ثم عقَلها ، ثم دخل المسجد فصلّى خلف النبيّ ، ثم أتى راحلته فاطلقها ، ثم ركب ثم نادى : « اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً » . فقال رسول الله : أتقولون هو أضلُّ أم بعيره[٢] ؟ »

ويدين الذبذبة والنفاق . قال الله تعالى : « مُذَبْذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »[٣] . وقال رسول الله : « إنَّ شرَّ الناس ذو الوجهْين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »[٤] . ووصف الرسولُ المنافقَ فقال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وَعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[٥] .

ويدين الكبر والاختيال . قال رسول الله : « لا يدخل الجنة أحدٌ في قلبه مثقالُ حبّة خردل من كبرياء »[٦] .

ويدين سخرية الناس بعضهم من بعض : « لا يسْخرْ قومٌ من

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود
(٢) رواه الخمسة ، ولفظه لابي داود
(٣) سورة النساء، الآية ١٤٣
(٤) رواه الأربعة
(٥) رواه البخاري ومسلم
(٦) رواه مسلم والترمذي

قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساءٍ ، عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ »[1] .

ويدين تحقير الناس « بحسب امرىءٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم »[2] .

ويدين الغشّ في المعاملات « مَنْ غشّنا فليس منا »[3]. ويدين الغُبن، والتغريرَ ، والإكراه في البيع ، والتواطؤ ، وغير ذلك .

ويدين العصبيّة لأنها تثير النفور ، وتورث الحقد . قال رسول الله : « ليس منا مَنْ دعا الى عصبية»[4] . وفسَّر رسول الله العصبية بأنها « أن يعين المرءُ قومه على الظلم » .

وعلى الجملة فقد أمر الإسلام بالابتعاد عن كل ما يوهن المحبة بين أفراد المجتمع الاسلامي ، ودعا الى مكارم الأخلاق التي تضمن المحبة وتقويها .

وقد سمّى الرسول أولئك الذين يبتعدون عن مكارم الأخلاق : « المفلسون ».قال رسول الله: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا مَتاع.فقال: إن المفلس من أمّتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١١
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الشيخان
(٤) رواه أبو داود

وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ...»[1]

وقد حثّ الاسلامُ على نصر المؤمن دائماً وعدم خذلانه «ما من أمرىء يخذل امرءاً في موضع تُنْتَهك فيه حرمته ، ويُنْتَقص فيه من عرْضه إلا خذَله الله في موطن تجب فيه نُصرتُه»[2].

وفي سبيل بقاء هذه المحبة في المجتمع أوصى الله دائماً بكظْم الغيظ، وبالعفو عمن ظهرت منه بادرة تُسيء الى أخيـــه . قال الله تعالى : « وجزاءُ سيّئة سيّئةٌ مثلها فمنْ عفا وأصلح فأجرُه على الله. إنه لا يحبُّ الظالمين »[3]. وقال: « وأنْ تَعفوا أقربُ للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم »[4]. وقال : « ولْيعفوا ولْيصْفَحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفورٌ رحيم »[5]. وخاطب الله رسوله فقال : « فاَصفح الصفحَ الجميل »[6]. وقال : « ادفعْ بالتي هي أحسنُ ، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم »[7]. وجاء في الحديث : « ألا أنبئكم بما يشرّفُ البنيان ويرفع الدرجات ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : تحلم على مَن جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتُعطي مَن حرمك ، وتصلُ من قطَعَك »[8].

---

(١) رواه مسلم والترمذي .
(٢) أخرجه أبو داود
(٣) سورة الشورى ، الآية ٤٠
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٣٧
(٥) سورة النور ، الآية ٢٢
(٦) سورة الحجر ، الآية ٨٥
(٧) سورة فصّلت ، الآية ٣٤
(٨) رواه الشيخان

١٣ ــ التَعَاونُ شَرْطٌ أَسَاسيٌّ في هَذا المجْتمع

وفي هذا المجتمع المؤمن يسود التعاون بين المسلمين « وتعاونوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاوَنوا على الإثم والعدوان »[١]. فالتعاون هنا في الأمور الايجابية التي تؤدي الى خير الفرد وخير الجماعة . وقال الرسول : « الله في عوْن العبد ما دام العبد في عون أخيه »[٢]. وقال : « مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته . ومَن فرّج عن مسلم كرْبةً فرَّج الله عنه بها كربةً من كُرب يوم القيامة ، ومن يَسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة »[٤]. وكان الرسول يقول : « بلّغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها »[٥].

ذلك لأن مصالح الفرد ليست منفصلة عن مصلحة المجتمع الاسلامي، فهو يُعنى بالفرد ، والفرد يُعنى بمصالح المجتمع أيضاً .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢
(٢) رواه الشيخان
(٣) رواه الشيخان
(٤) ورد في السياسة الشرعية ص ٢١

١٤ — الرُّوح وَالمَادّة يَسيران مَعًا في هَذا المجْتمع

وفي هذا المجتمع يأخذ كل مسلم بما يريد من الحياة الروحية والحياة المادية . فهو لا يقدّس المادةَ وحدها ، على حساب حريته ، ولا يقدّس الروحَ على حساب رغيفه . فقد أمر الله أن يتمتع الفرد المسلم بالحياتين معاً . ووفّر السُبل في المجتمع الإسلامي لهما . « وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا »[١]. « قُلْ مَن حرّمَ زينة الله التي أخرج لعباده، والطيباتِ من الرزق »[٢]. « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم »[٣].

وقال النبي : إنّ لربّك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كلّ ذي حق حقَّه ...

وعندما قال أحد الصحابة : أنا أُصلّي الليل أبداً ، وقال آخرْ : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال ثالث : وأنا اعتزل النساء فلا أتزوجُ أبداً، قال الرسول : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. لكني أُصلّي، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنّتي فليس مني »[٤].

وقال عمر بن الخطاب: ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه[٥].

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٣١
(٢) سورة الأعراف الآية ٣٢
(٣) سورة المائدة
(٤) رواه البخاري ، واللفظ لمسلم .
(٥) عمر بن الخطاب ، للطهاوي ص ٤٧٣

جعل الإسلامُ العلمَ واجباً على كل مُسلم ومسلمة. قال الرسول : «طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلم»[١] وهذا يعني أن العلم إجباري. وقد رغّبَ الرسولُ في العلم ترغيباً شديداً فقال : «اغْدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً»[٢] وقال : «فضل العلم أحبُّ إليّ من فضل العبادة[٣]». أي أنه فضّل العلم على العبادة، لأنّ العبادة فيها منفعة خاصة، أما العلم ففيه نفع للمجتمع. بل إنه، عليه السلام، فضّل العلم على ما زاد على فروض الصلاة. فقال : «لأن تغدو فتتعلَّم باباً من العلم خَيْرٌ لَك من أنْ تُصلّي مئة ركعة»[٤].

وكذلك رغّب في نشر العلم ومنع من كتمانه. فقال الرسول : «مَنْ سُئلَ عن علمٍ فكَتَمهَ، ألجمَه اللهُ بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة»[٥].

وجعل الإسلامُ طلبَ العلم للعلم، لا لأمر آخر. قال الرسولُ: «مَنْ طلبَ العلمَ ليُباهي به العلماءَ، أو لِيُماري به السُفهاءَ، أو ليصرفَ به وجوهَ الناسِ اليه، فهوَ في النار»[٦].

---

(١) رواه ابن ماجه، وابن عبد البر
(٢) رواه البيهقي
(٣) رواه الطبراني في الأوسط
(٤) رواه ابن ماجه، والطبراني في الأوسط
(٥) رواه أحمد، وابو داود، والترمذي
(٦) رواه ابن ماجه

ومن العلم تعلّم اللغات غير العربيّة ، للإفادة مما كُتبَ فيها ، أو للأمْنِ من شرّ أصحابها ، وتبادل المصالح معهم . وقد أمر الرسولُ زيدَ بن ثابت أن يتعلّم لغة اليهود ، لأنه ما كان يأمن منهم .[1]

وجعل الإسلامُ ثوابَ العلم ونشرَه يلحق بالمتعلّم بعد موته. ففي الحديث « إنّ مما يلحقُ المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره . »[2]

ولا غَرْوَ أن نجد هذا الحثّ على العلم ، وقد جعل القرآن العلماء أعلى درجة من الجُهّال ، قال الله تعالى « قُلْ هَلْ يستوي الذين يَعْلمونَ والذين لا يعلمون »[3] وقال سبحانه : « يرفَعِ اللهُ الذين آمَنُوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات »[4]

فغايةُ هذا العلم الذي فُرِضَ على المسلمين ، جَعْلُ المجتمع الإسلاميّ « عالماً ، مثقفاً » لأنه من وسائل التوحيد الروحي بينهم . فاذا استاروا في كلّ شيءٍ « بعلم » ، وكانوا بكل شيء « على علم » ، تقدّم المجتمع الإسلامي ونجا من الشرور والأخطار ، واستطاع أن يحيا ، اذ لا حياة بلا علم .

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح
(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي
(٣) سورة الزمر ، الآية ٩
(٤) سورة المجادلة ، الآية ١١

وهذا المجتمع يعتني بصحة أفراده . لأن المرض اذا أنتشر بينهم أنهكهم وأضعفهم . فأمرَ الإسلامُ قبل كل شيء بالوقاية من الأمراض قال الرسولُ: « إذا سمعتُمْ به ــ أي بالوباء أو الطاعون ـ بأرضٍ فلا تقدموا عليه،وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه »[١] ، لئلا تنتقل العدوى الى سائر افراد المجتمع . وقال: « فِرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد »[٢] . وجاء الى الرسول مرة وفْدٌ من ثقيف ، وفيه رجلٌ مجذوم ليُبايعه . فأرسل اليه النبيُّ : إنّا قد بايعناك فارجعْ »[٣]

وأمر الإسلام بالتداوي . جاء الى الرسول الأعرابُ يوماً وسالوه: أنتداوى ؟ قال : تداوَوْا ، فإنّ الله لم يَضَع داءً إلا وضعَ له دواء »[٤] .

وفي قواعد الدين والسنة أوامر كثيرة تدعو الى حفظ الصحة : كالتشديد على النظافة ، والوضوء ، والغُسْل ، والسواك ، وتطهير

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه البخاري
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه أحمد ، وأصحاب السنن بسند صحيح

الثياب ، وعدم إلقاء الاوساخ في طُرُق المسلمين ، وعدم البصاق ، وعدم الافراط في الأكل ، أو ادخال الطعام على الطعام، وعدم الأكل قبل الجوع ، وعدم الامتلاء ، واللجوء الى الحمية ، لأن المعدة بيت الداء والحمية رأسُ الدواء ، وعدم أكل المـــآكل الخبيثة كلحم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .. وعدم شرب الأشربة المضرّة بالجسم والعقل كالخمر .. أو المخدّرات ، وبصورة عامـة كل ما يضرّ فأكله وشربه حـرام .

وفي قواعد الدين والسُّنّة ايضاً الدعوة الى الرياضة،لأنها تقوّي الجسم، والمؤمنُ القويّ أحبُّ الى الله من المؤمن الضعيف ، في جسمه . ومن أنواع الرياضة الصلاة ، والسباحة ، والرماية ، وركوب الخيل ، والمصارعة ...

١٧ — اتفاق الكلمة والطاعة أساس المجتمع الإسلامي

إن المجتمع الإسلاميّ منظّم ، فلا توجدُ فيه فوضى . ومـــن التنظيم أن يكون للمسلمين حاكم يرعىٰ أمورهم . « إذا كنتم ثلاثـــة فأمّروا أحدَكم »[١] .

(١) رواه الطبراني باسناد حسن .

وهذا التنظيم يوجب عليهم أمرين :

الأول : أن يطيعوا الله ، والرسولَ ، وأولي الأمر منهم[١] . فالحاكم الذي يُبايعه المسلمون لضمان حقوقهم ، ومراقبتهم في واجباتهم ، له عليهم حقُّ «السمع والطاعة في العُسْرِ واليُسْرِ ، والمنشِّط والمكروه.» وهذا يعني مؤآزرة الحاكم في كل شيء . ما دام متقيداً بالشرع ، أو ما دام متصفاً بشروط الإمامة . فإذا خرج عن الشرع أو فقد شروط الإمامة ، فلا طاعة له . كما أنه إذا ولي الأمرَ رجلٌ ليس أهلاً له ، فالخراب ينتظر المجتمع .

والثاني : أن أمورهم تجري بالشورى.« وأمرُهم شورى بينهم»[٢] . وهذه الشورى تمنع التعسّف وطغيان الفرد على الجماعة . فإذا اتفقوا على شيء فليس لأحدٍ منهم أن يخرج عما اتفقوا عليه . لأن وحدة المجتمع الإسلامي لا يجوز هتكها . قال رسولُ الله : « ليس أحدٌ يُفارق الجماعة شبراً فيموتُ إلاّ مات ميتةً جاهلية »[٣] وقال : « مَنْ فارق الجماعةَ شِبراً فقد خَلَعَ الاسلامَ من عنقه »[٤] . بل دعا الرسولُ الى القضاء بسرعة على من خالف الجماعة ليفرّق بينها . «أيُّما رجلٍ خرج يفرّقُ بين أمّتي فاضربوا عُنُقه »[٥] .

فاذا وقع خلاف بين المسلمين ، فيجب على المجتمع الإسلامي

(١) سورة النساء ، في الآية ٥٩
(٢) سورة الشورى ، الآية ٣٨
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه أحمد ، ابو داود
(٥) رواه النسائي

أن يتسارع الى الإصلاح وأن يُردّ الخلافُ الى ما قاله الله ورسوله. وذلك حفظاً على وحدة المجتمع المؤمن: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما»[1] ، وقال الله تعالى: «فاتّقوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بيْنِكم»[2] . وحتى في الخلافات التي تجري بين الأفراد المؤمنين يجب المبادرة الى إزالتها . وقد جعل القرآن من البرّ والتقوى الاصلاح بين الناس.[3]

١٨ — النقد الذاتي في سبيل بقاء هذا المجتمع

وأخيراً، ففي سبيل بقاء هذا المجتمع المسلم نظيفاً طاهراً ، جعل الله الدعوةَ الى الخير والنهي عن المنكر من واجبات كل مسلم ومسلمة ، فقد يجهل أحدُ المؤمنين ما يجب عليه ، أو يزلُّ فيخطىء ، فيجد من أخيه المؤمن النصح والإرشاد . قال الله : «ولتكنْ منكم أمةٌ يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينْهوْن عن المنْكر ، وأولئك هم المفلحون»[4]. وقال : «المؤمنونَ والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض : يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر»[5]. ويجري هذا كله بالنصيحة. قال رسول الله : «الدينُ النصيحةُ ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٩

(٢) سورة الأنفال ، الآية ١

(٣) سورة البقرة ، في الآية ٢٢٤

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤

(٥) سورة التوبة ، الآية ٧١

لله ، ولرسوله ولائمة المسلمين وعامّتهم»[1].

ولقد كان من أعمال الرسول التي أرسلها الله من أجلها : الأمرُ بالمعروف بين الناس : « الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يامرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنْكر ، ويحلُّ لهم الطيِّبات ، ويحرِّم عليهم الخبائث ، ويضعُ عنهم إصْرهم والأغلال التي كانت عليهم »[2].

والمعروف ، كما حدّده ابن الأثير في « النهاية »[3] : اسم جامعٌ لكل ما عُرف من طاعة الله ، والإحسان الى الناس . وكلُّ ما ندبَ اليه الشرع ونهى عنه . وهو أيضاً النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس ، والمنكر ضد ذلك جميعه .

وجاء في المصباح المنير : « المعروف هو الخير والرفق والإحسان » . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم ومسلمة . كلٌّ على قدر طاقته . ويفعل المسلم هذا بيده ، فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه .

وقد حذّر الإسلام المسلمين من السكوت على المنكر ، لأنه يُفسد المجتمع الإسلامي . قال رسول الله : « إنَّ الناس اذا رأوا المنكرَ فلم يغيّروه أوشك أن يعمّهم الله بعقابٍ منه »[4].

---

(١) رواه الشيخان
(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧
(٣) النهاية ٣ / ٢١٦
(٤) رواه أحمد

١٩ — المجتمع الإسلامي متجدّد دائماً

ان المجتمع الإسلامي يطرأ عليه تبديل من حين الى حين ، وتحدثُ له مُشكلات جديدة ما عرفها السلف . فلا بُدّ أن يجد لها المجتمع ، على ضوء مبادىء الإسلام ، حُلولاً ، ليبقى المجتمع الإسلامي هانئاً ، ولا يجد المؤمنون عُسراً ولا مشقّة ، ولا حَرجاً ، فيما استُحْدثَ في مجتمعهم من تطوّر حضاري ومادّي . لذلك جاء في الحديث: « أنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدّد للأمة دينها »(١) أي يدلّها على أحكام ما استُحْدِثَ في المجتمع،ويصلح ما أُهملَ من الدين نفسه ، وما أضيف عليه مما هو ليس منه .

وهذا التجديد ضروري لحياة المجتمع المؤمن ، وضروري لحياة الدين نفسه ، لأن التجديد سنّة الحياة . وكان المجتهدون موجودين في كل عصر من العصور السابقة ، ليواجهوا الأمور الاضطرارية . قال تعالى : (وقد فصّل لكم ما حَرّم عليكم إلاّ ما اضطُرِرْتُمْ اليه)(٢) . سأل رسولُ الله معاذَ بن جَبل حين ولاّه على اليمن : بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله. قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فأقرّه الرسول على ذلك . وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى في هذا الشأن : « ألَفهْمَ

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة

(٢) سورة الانعام ، الآية ١١٩

فيما تَلَجْلَجَ في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سُنّة النبيِّ ﷺ ، ثم اْعرفْ الاشباهَ والامثالَ ، فقِسِ الامور عند ذلك بنظائرِها ، واْعمدْ الى أقربها الى الله وأشبهها بالحقّ »[1] .

وهذا الاجتهاد للتجديد واجب ، لأن الدين جاء لرعاية مصالح الناس ، وتوجيههم ، وتحسين أحوال معاشهم . والأمور المستحدثة دائمة ، فلا بُدَّ من الاجتهاد ، على أن يُراعى فيه العدلُ والمصلحة .

وهذا الأمر هو الذي دفع ابن قيّم الجوزية الى القول : « يجب أن ننتهي من قول العلماء الذين يقولون : هذا لا يوافق الشرع ، وهذا لم يقل به الرسول . وأن نتّبع سياسة المصلحة ، أي ما يوافق الناس ويكون فيه صلاحهم »[2] .

وقال ابن عَقيل الحنبلي في « الفنون » : السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسولُ ولا نزل به وحي »[3] . كلُّ هذا ليبقى الاسلام نظاماً متكاملاً للحياة الانسانية المتطورة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١ - ٢٥٥
(٢) ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية ص ١٤
(٣) المصدر السابق ص ١٥

كما أنّ الدماء والأعراض مُصانة في المجتمع الاسلامي ، فكذلك الأموال .

فلا يجوز أكل أموال الناس بالباطل . قال الله تعالى : (يا أيُّها الذين آمنو لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)[١] .

ولا تجوز السرقة ، ومَنْ يسرق لا يكون مؤمناً . قال الرسول : « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[٢] . ومن سرَق عوقب : « السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا »[٣] . وشدة العقوبة هنا لضمان أموال الناس .

ولا يحق لأيّ حاكم أن يغتصب أموال الناس ، ولا أن يُصادرها . دون رضاهم وطيب أنفسهم . إلا في حالات معينة روعي فيها مصلحة المجتمع ، على أن يُدفع الثمن كاملاً .

والمبدأ العام في الإسلام أن لا ينظر المسلم قط الى مال المسلم ، لضمان دوام المحبة بين أفراد المجتمع . قال رسول الله : « إزهدْ فيما في أيدي الناس يحبك الناس »[٤] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٢٩
(٢) رواه الشيخان
(٣) سورة المائدة ، الآية ٣٨
(٤) رواه ابن ماجه ، والطبراني

ومن باب المحافظة على أموال الناس ، وخاصة الفقراء ، حرّم الإسلامُ الربا الذي كان أيام الجاهلية ، لأن الربا ابتزازٌ لأموال الفقراء . وتركيزٌ للثروة في أيدي الأغنياء . قال الله تعالى : « وأحلَّ الله البَيْعَ وحرَّم الربا »(١) . وقال تعالى : « يمحَقُ الله الرِّبا ويُرْبي الصدقات »(٢) وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً ، واتقوا الله »(٣) .

وقد أبان القرآن أن الربا لن يعود على المُرابي بالخير « وما آتيتم من رباً ليربوَ في أموال الناس فلا يربو عند الله »(٤) .

وأبان الرسول أن الربا شرّ المكاسب .

كل ذلك لأن الربا تنمية للمال في المجتمع ، بدون جهد ، وفيه عمل لا انساني هو ابتزاز مال الفقير والمحتاج من غيرِ تعبٍ ، ولا عوض ، ولأن الاعتماد عليه في الكسب يمنع العمل . وكل ذلك يقوّض المجتمع الإسلاميّ .

واذا كان الاسلام منع التعرّض لأموال أفراد المجتمع الاسلاميّ ، فقد أمر أيضاً أن يحافظَ المسلمُ على ماله نفسه ، فلا يبذّر ولا يُسْرف.

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٦

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٣٠

(٤) سورة الروم ، الآية ٣٩

قال الله تعالى : « ولا تسرفوا ، إنه لا يحبُّ المسرفين »[1] ، وقال تعالى: « ولا تُبذِّر تبذيرا »[2] .

وكذلك حرَّم الإسلامُ المَيْسر ، لأن فيه ضياعاً للأموال ، وجعله القرآنُ رِجْساً من عمل الشيطان[3] ، لأن الذي يربح لا يربح بجهده ، والذي يخسر لا يخسر بجهده ، فلا الكسب فيه مشروع ، ولا الخسارة فيه عادلة . وإنما الذي يؤثّر فيه المصادفة والحظ . فضلاً عما ينتج عنه للخاسر من أحوال نفسية تؤثر في صحة جسمه وعقله .

٢١ — الثَّروة في المجتمع الإسلاميّ لفائدة الجميع

كان لا بُدّ ، وقد عُني الإسلامُ ـ بعدالته ـ بالتضامن الروحي بين المسلمين وتحقيقه ، من أن يُعنى بالتضامن الماديّ بينهم ، اتماماً للعدالة ، ومراعاة للطبيعة الإنسانية ، لأنه اذا كان في المجتمع الإسلامي مَن هو ضعيف يحتاج الى قوّة ، أو ضالّ يحتاج الى نصيحة ، أو جاهل يحتاج الى معرفة ، فإن فيه فقراء ومساكين لا يجدون الطعام ، أو منقطعين بائسين لا يجدون المأوى ، أو شيوخاً ومُقعدين ليس لهم مُعين ، أو مرضى ليس عندهم الدواء. والعدلُ يقضي أن توّجه العناية

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٤١ ، وسورة الأعراف الآية ٣١
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٦
(٣) سورة المائدة ، الآية ٩٠

اليهم ، فيجدون جميعاً الطعام والكساء والمأوى والعلاج والعوْن .
فماذا شرّع الإسلام ؟

لقـــد استنكر الإسلامُ أن يكون في مجتمعه فقراء مُدْقعين ، وأغنياء مُترَفين ، وأن يكونَ الفقراءُ بلا مال ، ويكون المالُ متداولاً بين الأغنياء. فامر أن يقدّم كلُّ مُسلمٍ من ماله قدراً معلوماً ليُنْفَقَ على الفقراء وذوي الحاجات ، وعلى أمور أخرى تفيد المجتمع الإسلاميّ كله . ففرض على المسلمين ضرائب على رأس المـــال الذي يدّخره الانسان ، كالذهب والفضة والأنعام ، وضرائب على الدخل الآتي من البضاعات أو الزروع والثمار . وأهم هـــذه الضرائب هي الزكاة ، وهي أمر مفروض . ثم الصدقات والمبرّات والخيرات ، وهو أمر تطوّعي ، لكنه لكثرة ما رغّب القرآن والرسول فيه أصبح فرضـــاً .

وكلا الأمريْن آتٍ عن أن الفقراء والمساكين لهم حقٌ معلوم في أموال الأغنياء والموسرين المسلمين : « إنّ الانسانَ خُلق هَلوعا ، إذا مسّه الشرُّ جَزوعا ، وإذا مسّه الخير مَنوعا ، إلاّ المصلّين ، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل المحروم »[(١)]

أما الزكاةُ فهي ، كما قلنا ، فرضٌ إجباري . يؤدّيها المسلم الى الخليفة أو السلطان أو الحاكم ، ليوزّعها على مستحقها ، أو يدفعها

(١) سورة المعارج ، الآية ٢٣

هو بنفسه . وقد سمّاها القرآن « زكاةً » « وصدقة » ، وجعلها من دعائم الاسلام الخمس : « خُذْ من أموالهم صَدَقةً تُطَهِّرُهم وتُزَكيهم بها »[1] ، وقرنهـــا دائماً بالصلاة وأَمرَ بها : « فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاةَ ، وأقرِضوا الله قرْضاً حسناً »[2] ورغّب بها : « آمِنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مُسْتخلَفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »[3]. وحذّر وخوّف من إهمالها رغبـــة في نفع المجتمع بها : « خُذوه فغُلّوه ، ثم الجحيمَ صَلّوه ، ثمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سبعون ذِراعاً فاسْلُكوه ، إنَّه كان لا يُؤمِنُ بالله العظيم ، ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين »[4] .

وجَعَلَ الزكاةَ مَدْعاةً للرحمة : « ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء ، فسأكتبها للّذين يتّقون ويُؤتون الزكاةَ ، والذين هم بآياتنا يؤمنون »[5] .

وقد فُرضت الزكاة من الرجال والنساء ، الكبـــار والصغار البالغين ، ممن لديهم المال الذي تجب الزكاة عليه .

وتؤخذ هذه الزكاةُ منهم أبوا وكرهوا أم رضوا . فإن مانَعوا أُجبروا من أدائها . وفي الحديث : «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِل الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ... »[6] وقد حارب أبو بكر المرتدّين لأنهم أبوْا

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٣
(٢) سورة المزمّل ، الآية ٢٠
(٣) سورة الحديد ، الآية ٧
(٤) سورة الحاقة ، الآيات ٣٠ - ٣٤
(٥) سورة الاعراف ، الآية ١٥٦
(٦) رواه الشيخان

أداءها ، وقال : الزكاة حق المال[1] . وهذا العنف في إلحاح الاسلام على دفع الزكاة مردّه الى الحرص الشديد على إقامة العدالة ، وانتظام المجتمع الاسلامي ، لأن عدم أدائها يسبّب خللاً فيه ، ويدفع بـــه الى الخراب .

ونصّ الفقهاءُ على أن الزكاة تبقى دَيْناً على مَنْ تأخّر في دفعها، لأنها حقٌّ لمن خُصّصت لهم .

أما الذين تُنفق عليهم أموالُ الزكاة فقد حدَّدهم القرآن الكريم: « إنما الصَدَقاتُ لِلْفقراءِ والمساكينِ ، والعامِلينَ عليها ، والمؤلَّفةِ قلوبُهُم ، وفي الرِّقابِ ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابنِ السّبيل . فريضةً من الله . واللهُ عليمٌ حكيمٌ »[2] .

فَمَنْ هُمْ هؤلاء ؟

فالفقير ، على قول ابن حزم ، هو الذي لا شيء له أصلاً . والمسكين هو الذي له شي ، لكن لا يكفيه[3] .

وقال قتادة : الفقراء هم الذين بهم زَمانَةٌ – أي مرض مُزْمن – . والمساكينُ هم المحتاجون الأصحّاء[4] .

والعاملون عليها : أي الذين يجبونها ويجمعونها ممن تجبُ عليهم . فهم عُمال يستحقون الأجر على عملهم .

---

(١) رواه الشيخان ، جامع الأصول ٢/٨
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٠
(٣) معجم فقه ابن حزم ٧٩٦
(٤) ابن قتيبة ، غريب القرآن ١٨٩

والمؤلّفةُ قلوبهم : هم الذين كانوا في أول الإسلام ضعفاء الايمان ، أو الذين يُستمالون لتقوية الاسلام . والأغلب أن الهدف من إعطائهم أمر سياسي .

وفي الرّقاب : أي تُصرف أموالُ الزكاة لتحرير العبيد الأرقاء ، وفكّ رقاب الأسرى المسلمين من الأسر .

والغارمون : الذين عليهم دَيْنٌ لا يستطيعون قضاءه . فيُعطون المال ليفوا ديونهم .

وفي سبيل الله : أي يُنفق المال على الغزاة الذين ينشرون الإسلام ، أو الذين يُدافعون عن الإسلام ، ويدخل في هذا الباب كل ما يقوّي المسلمين من شراء الخيل والعتاد والسلاح ، وما يعود عليهم بالخير من المصالح العامة .

وابن السبيل : المنقطع ، المجتاز من بلد الى آخر ، الذي أعوزه المال .

فهؤلاء الذين يُدفع لهم من أموال الزكاة ، وكلهم ممن يحتاجون الى النفقة في المجتمع الإسلامي .

وقد حثّ الإسلام على الزكاة بطرق شتى لما فيها من فائدة للمجتمع فجعلها تزكية وتطهيراً للفرد ، وجعلها قرضاً لله يضاعفه الله ، وحذّر

من كنز المال « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتيَ أحدَكم الموتُ »[١] وأخبر أن الشُحّ مضرٌ: « ومَن يوقَ شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون »[٢] الى غير ذلك . فأي دين أو نظام حثّ على رفاهية المجتمع كالإسلام ؟

وتؤخذ هذه الزكاة على ما مضى عليه سنةٌ عند المسلم من الذهب والفضّة المكتنزيْن ، إذا زاد ذلك على عشرين ديناراً ، أو مائتا درهم فضة فإذا كان ذلك أقل من عشرين أو مائتي درهم فليس عليها شيء .

وقد أوضح ذلك الإمامُ علي في حديث له . قال : إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحوْل ففيها خمسة دراهم (زكاة) وليس عليك (أي في الذهب) حتى يكون لك عشرون ديناراً . فإذا كان لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار[٣] .

وتؤخذ أيضاً على عروض التجارة ، والقمح ، والشعير ، والتمر ، والإبل ، والبقر ، والغنم . حسب مقادير محدّدة .

وليس تحديد الذهب والفضة معناه أن من يملك ذهباً أو فضة فقط مجبرٌ على دفع الزكاة ، بل أن كل من يملك أي نوع من النقد المتعارف عليه ، والمتداول بين الناس ، فيحول عليه الحول ، ويكون مقداره يُعادل قيمة المئتي درهم أو العشرين ديناراً ، فعليه أن يدفع الزكاة .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ١٠
(٢) سورة الحشر ، الآية ٥٩
(٣) رواه أبو داود

ولا تُصْرَفُ أموال الزكاة إلاّ من الجهات التي خصّصها القرآن. ولا تُخلط بأموال أخرى يدفعها المسلمون أو أهل الجزية، للخليفة والحاكم.

وكانت الزكاة تُدفع للرسول ثم الى الخلفاء ليوزّعوها. فلما كثُرت وفاضت أنشا ابو بكر أولاً ثم عمر بن الخطّاب، بيتَ المال لتودع فيه ويجري توزيعها، حتى كانت أيام عثمان، فترك الناس يدفعون زكاتهم.

وقد نص الفقهاءُ على أن الحاكم اذا امتنع عن دفع الأرزاق للفقراء من بيت المال، فللفقير المستحق أن يلجأ الى القضاء ليجبره على الانفاق.

وثمة زكاةٌ أخرى فرضها الله، يوزّعها الانسانُ على المحتاجين هي زكاة الفِطْر. تُنفقُ فى آخر شهر رمضان قبل عيد الفطر. فتكون تطهيراً لصيام الصائمين، وَعْوناً للفقراء والمساكين، تُدخل في نفوسهم البهجة بالعيد، ولا يشعرون بالحاجة والفاقة.

وتوسّعوا في معنى الزكاة فنقلوه من الأمور المادية الى المعنوية. فجعلوا على كل نعمة أنعمها الله على الانسان زكاة. فزكاة القوّة: المدافعةُ عن الضعيف المظلوم، وزكاة الجاه: أن تبذل جاهك لتساعد مَنْ لا جاهَ له.

وهذا نوع آخر مما يدفعه الأغنياء من أموالهم للفقراء، طوْعاً لا إجباراً، ولكن أصبح كأنه فرض لكثرة ما رغّب الرسول فيه، وحثّ عليه، كما جاء القرآنُ يدعو اليه ويحبّب فيه: «الذين يُنفِقون أمْوالَهُمْ بالليلِ والنّهارِ، سِرّاً وَعلانِيَةً، فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهم ولا خوْفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون»[1]، «مَثَلُ الذين يُنْفِقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابلَ، في كُلّ سُنْبُلَةٍ مئةُ حَبّة، واللهُ يُضاعف لمن يشاء»[2]. «قُلْ لعبادي الذين آمنوا يُقيموا الصلاة ويُنْفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية»[3]، «لِيُنْفقْ ذو سعةٍ من سَعَته»[4].

وقد جعل الاسلامُ الصدقاتِ، كفَّارةً للذنوب والمعاصي. قال رسولُ الله. «الصدقةُ تُطْفِئُ المعْصية كما يطفِئُ الماءُ النارَ»[5]. «الصدَقةُ تدفعُ البلاء»[6]. «اتقوا النارَ ولو بِشِقّ تمرة»[7]، وقال الله تعالى «إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئآت»[8] وعن أنس عن رسول الله: «إنّ للحسنة نوراً في القلب، وَزَيْناً في الوجه، وقوّة في العمل».

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٧٤
(٢) سورة البقرة ٢ / ٢٦١
(٣) سورة ابراهيم ١٤ / ٣١
(٤) سورة الطلاق ٦٥ / ٧
(٥) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه
(٦) رواه الطبراني، والبيهقي
(٧) رواه الشيخان وأحمد
(٨) سورة هود، الآية ١١٤

وحتى إنّ رسولَ الله سمّاها « غسّالةَ ذنوبِ الناس »[1] أي أنها تغسل ذنوبهم وتمحوها .

ولا بُدّ أن تكون هذه الصدقاتُ من مال طيّب حلال . قال رسول الله : « لا يكسبُ عبدٌ مالاً حراماً ، فيتصَدق به فيُقبل منه .... إن الله تعالى لا يمحو السيء بالسيّء ، ولكن يمحو السيءَ بالحسن . إن الخبيث لا يمحو الخبيث »[2] .

وتُنفق هذه الصدقات والمبّرات على :

١ ـ ذوي القُرْبى المحتاجين « وآتِ ذي القُربى حقّه »[3] . وقد حثّ الاسلام على صِلَة الرحم أي الأقرباء ، والبّر بهم . في الحديث « مَنْ أحبّ أن يَبْسطَ الله في رزقه ، وينسَأ في أجله ، فَلْيصِلْ رحمه »[4] . وفي الحديث أيضاً « لا يدخل الجنّة قاطعُ رحِم »[5] . وفيه : « الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحِم ثنتان : صدقة وصِلة »[6] . وصلة الرحم تكون بالمودّة لغير المحتاج . وبالنفقة للمحتاج . واذا امتنع القريبُ من الإنفاقِ على قريبه ألزمه القاضي بذلك .

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه أحمد
(٣) سورة الاسراء ١٧ / ٢٦
(٤) رواه البخاري ومسلم
(٥) رواه البخاري ومسلم
(٦) رواه أحمد

٢ ـ الجار : « والجار ذي القُرْبى ، والجارِ الجُنُب »[١] . وقد حثّ الاسلامُ على المحافظة على الجار وإكرامه وبرّه . في الحديث : « من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فَلْيُكْرِمِ جاره »[٢] . وقال رسولُ الله : « ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورّثُه »[٣] . وقال : « ما آمن بي مَنْ بات شبعان وجارُه جائعٌ الي جنبه وهو لا يعلم »[٤] .

٣ ـ الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . وقد مرّ تعريفهم . قال الله تعالى : « وآتِ ذا القُربى حقه ، والمسكينَ وابنَ السبيل ، ولا تبذّر تبذيراً »[٥] .

٤ ـ ثم على ما فيه خيرٌ للمسلمين بصورة عامة .

وعلى هذا فيدخل في وجوه الإنفاق من الصدقات والمبّرات والخيرات والحسنات إطعامُ الفقراء والمساكين ، واكساؤهم ، ومعالجة المرضى ، والانفاق على العاجزين ، وبناء المدارس ، وتعليم الناس ، وبناء المشافي ، ومساعدة المعوزين ، مهما كان نوع عوزهم . فيكون في ذلك كله محاربة للجوع ، والفقر ، والمرض ، والجهل .

وقد نصّ ابن حزم على صدقات أخرى جعلها فرضاً . فعلى

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٦
(٢) رواه الشيخان
(٣) رواه الشيخان ، زاد المسلم ٢ / ٢٧٣
(٤) رواه الشيخان
(٥) سورة الاسراء ، الآية ٢٦

التجّار فرض أن يتصدّقوا خلال بيعهم وشرائهم، وعلى كلّ مَنْ يملك إبلاً أو بقراً أو غنماً أن يحلبها يوم ورودها الماء ويتصدّق من لبنها، وفرضٌ على كلٍّ صاحب زرع عند حصاده أن يُعطي منه مَنْ حضَر من المساكين، كل منهم ما طابت به نفسه. وكذلك فرضٌ على الأغنياء أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، فإنْ لم تَكْف أموال الزكاة، يصرفونها من فُضُول أموالهم[1].

وعلى الجملة فقد أعطى الاسلام للفقراء ما لم يُعطه أي دين آخر، واهتم بهم اهتماماً بالغاً، لم يهتم به أي نظام اقتصادي عُرِف. محاولاً بذلك رفع الفقر عنهم، لئلا يفسد المجتمع الاسلامي بوجود لبنات حاقدة محرومة فيه، فالفقر يدفع الى الكفر. ولذا نجده يُدخل الفقراء بكل شيء: في الحديث «شرٌّ الطعامِ الوليمة يُدعى لها الأغنياءُ ويُترك الفقراءُ»[2]. وفيه: «أفضلُ الصدقة أن تُشبع كبداً جائعاً»[3]. وقال الرسولُ: «مَنْ مَنَحَ مَنيحةَ لبنٍ أو ورِق، أو أهدى زقاقاً كان له مثلُ عتق رقبة»[4]. ومنيحة اللبن هي الناقةُ أو الشاةُ تُعطيها غيرك ليحتلبها ثم يردّها اليك. ومنيحة الورق هي دراهم الفضة تُقْرِضها غيرك ممن لا حاجة، وهداية الزقاق هي أن تدلّ غيرَك على

---

(١) معجم فقه ابن حزم، ص ٧٩٣
(٢) رواه الشيخان، زاد المسلم ١ / ٢٢٠
(٣) رواه البيهقي
(٤) رواه أحمد والترمذي

الطريق ليسلكه . ويُقاس على هذا أمور كثيرة يفعلها المؤمن من أعمال البر والمعونة .

وكان الرسولُ في أحاديثه الكثيرة يفضّل الفقير على الغنيّ . ليخفّف من شأن الغنى في المجتمع ، وليجعل الشأن للعمل النافع ، وللإيمان . قال الرسول يوماً لأبي ذرّ : أترى كثْرَةَ المال هو الغنى ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال الرسول : إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب . وفي حديث آخر : « ليس الغنى عن كثرة العرضِ ، ولكنّ ، الغنى غنى النفس»[(١)] .

وكان الرسول يحارب مظـــاهر الغنى حتى لا تؤذي نفوسَ الفقراء . ففي الحديث : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا الحرير والديباج »[(٢)] . وفي حديث آخر : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[(٣)] . وكان يأمر الفقراء أن لا ينظروا الى مَنْ فوقهم ، ولكن الى الذين دونهم ، كيلا يعمل الحقد في نفوسهم : « إذا نظر أحدُكم الى مَنْ فضُل عليه في المال والخلْق فلينظر الى من هو أسفلُ منه »[(٤)] .

وقد أمر الاسلام بإخفاء هذه الصدقات التطوعيّة وعدم إظهارها

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه الشيخان ، زاد المسلم ٢ / ١٨٨
(٣) رواه الشيخان ، زاد المسلم ٣ / ٢٧٦
(٤) رواه البخاري

أو المنّ بها ابتغاء الشهرة والظهور ، وإلاّ بطل ثوابها « يا أيّها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى »[1] وعدّ رسولُ الله فيمن يظلّهم الله في ظلّه يوم القيامة : « رجلٌ تصّدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنْفق يمينه »[2] وقال الله تعالى « إن تُبْدوا الصدقات فنِعمّا هي ، وان تُخفوها وتؤْتوها الفقراءَ فهو خيْرٌ لكم »[3] .

والى جانب هذه الصدقات المادية صدقات معنوية يقومُ بها الانسان المسلم إذا لم يجد ما يُنفق . قال رسول : « على كل مُسلم صَدَقةٌ ، فإن لم يجد فيعملُ بيده ، فينفعُ نفسَه وَيَتصدّق ، فإن لم يستطعْ فيعين ذا الحاجة الملهوف ، فإن لم يفعل فيأمرُ بالخير ، فإنْ لم يَفْعلْ فَيُمّسكُ عن الشرّ ، فإنّه له صَدَقةٌ »[4] .

ويُلحَق بالفقراء الأيتام . فاذا مات رجلٌ وخلّف عيالاً ، ولم يورثهم شيئاً فبيتُ المال أو الحاكم يدفع لهم رزقهم ويعولهم : جاء في الحديث: « مَنْ ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك كَلاًّ فإليّ وعليّ »[5] وقال : « الساعي على الأرملة اليتيم كالمجاهد سبيل الله »[6]. وقد حثّ الرسول

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤
(٢) رواه الشيخان ، زاد المسلم ١ / ٢١٣
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧١
(٤) رواه الشيخان ، زاد المسلم ١ / ٢٤١
(٥) رواه الشيخان
(٦) رواه الشيخان والترمذي

على إكرام اليتيم : « خيرُ بيوت المسلمين بيت يُكرم فيه يتيم، وشر بيوت المسلمين بيت يقْهرُ فيه يتيم . » هذا ، وقد منع الله من أكل أموال اليتامى ، وأمر بأدائها إليهم كاملة[1] .

* * *

كلّ ما مرّ بك ، سواء من فرض الزكاة ، أو من الحثّ على الصدقات ، يهدف الى إقامة تضامن ماديّ بين افراد المجتمع الإسلامي ، والى إيجاد « توازن اجتماعي » يقرّب بين افراد المجتمع ، الأغنياء والفقراء ، في مستوى المعيشة ، رغم اختلاف مستوى الدخل. مستوى للمعيشة يجد فيه كل فرد ما يكفيه ويرضيه .

والى جعل المال متداولاً بين الناس جميعاً ، فلا يكون متركّزاً في أيدي فئة قليلة ، فيكون التناقض الشاسع بين الطبقات الاجتماعية . وبذلك حلَّ الإسلام أمر توزيع الثروة على جميع أفراد المجتمع الإسلامي بشكل يضمن لكل منهم حاجاته .

وبذلك تطهر قلوب الأغنياء من الشحِّ والبخل والاحتكار ، وتصفو قلوب الفقراء من الحقد والضغينة والشكوى ، وتكون المحبة مرفرفة بين أفراد المجتمع الإسلامي .

وإذا لم تكف أموال الزكاة والصدقات وموارد بيت المال للقيام بضمان سدّ حاجات الرعية الأساسية ، فإن الحاكم له أن يفرض ضرائب يأخذها من فضول مال الأغنياء لسدّ تلك الحاجات .

(١) سورة النساء ، في الآية ١٠

وعلى هذا فان الإسلام ضمن ، بتشريعاته الاقتصادية هذه ، تلبية حاجات الفرد الأساسية وهي : المأكل والملبس والمسكن ، والدواء ، على الأقل ، بشكل لائق .

٢٢ – المجتمع الإسلامي يحارب البخل والشح

حارب الإسلامُ البُخل والشُحّ ، لكي يضمن دفعَ الموسرين والأغنياء صدقاتهم ، وفضولَ أموالهم ، للفقراء والمعوزين ، أو لما يعود على المجتمع الاسلامي بالخير. قال رسول الله : « لا يدخل الجنة خِبٌّ – أي خدّاع – ولا منّانٌ – أي الذي يمنُّ على من أعطاه – ، ولا بخيل – أي المانع الصدقة ، والمانع فضله عن المضطر اليه »[١].

وقال الرسولُ : « إياكم والشُحّ ، فانه أهلك مَنْ كان قبلَكم . أمرَهم بالبخل فبخلوا ، وأمرَهم بالظلم فظلموا ، وأمرَهم بالقطيعة فقطعوا »[٢].

وهذا الحديث من روائع كلام رسول الله ، لأنه يبيّن أثر الشحّ في المجتمع ، وما يفعله في نفوس الناس من بخل يؤدي الى ظلم وقطيعة فهلاك .

---

(١) رواه الترمذي

(٢) رواه الترمذي والبيهقي والطبراني

وقد رغّب الرسولُ عليه السلام في السخاء : « السخيُّ قريبٌ من الله ... والبخيل بعيدٌ من الله ... ولَجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ الى الله من عابد بخيل ... »[١].

٢٣ — المجْتمع الإسْلامي يُشَجّع العَمَل وَيحَمي العُمّال

على أن الإسلام لم يقف هذا الموقف وحده من معالجة الفقر في المجتمع الإسلامي ، ـ وهو موقف إنساني نبيل ـ لكنه رأى أن الأحسن للفقير أن يعمل ليكسب المال الطيّب بنفسه ، ولا يحتاج لمن يتصدّقُ عليه .

لهذا نرى الرسولُ يعمد الى ثلاثة أمور :

الأوّل : جعل السؤآل أمراً مكروها، لا يليق برجل قادر على العمل أن يفعله . قال الرسول : « لو تعلمونَ ما في المسألة ، ما مَشَى أحدٌ الى أحدٍ يسأله شيئاً »[٢]، وخطب مرةً فقال: أيُّها الناس! قد آنَ لكم أن تَسْتَغْنوا عن المسألة ، فإنّه من يستعفّ يعفّه الله ، ومن يستَغْنِ يُغنه الله . »[٣]

الثاني : الحثّ على العمل باعتبـــاره وسيلة الكسب ومصدراً

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه النسائي .
(٣) البداية والنهاية ٩ /٤

للانتاج . قال الرسول : « والذي نفسي بيده ، لأن يأخذَ أحدُكم حَبْلَهُ فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أنْ يأتيَ رجلاً يسأله ، أعطاه أو مَنَعَه . »[1]

وقال : « ما أكل ابنُ آدم طعاماً خيراً من عمل يده »[2]

وكذلك كرّم العامل وشجّعه . جاء رجل مكدودٌ الى الرسول يوماً ، فرفع الرسول يده وقبّلها وقال: «طلبُ الحلال فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمة. ومَن أكل من كدّ يده مرَّ على الصراط كالبرق الخاطف، ومَنْ أكل من كدّ يده حلالاً فُتح له أبواب الجنة يدخل من أيّها شاء »[3] .

وكان رسولُ الله يسأل عن الشخص إذا أعجبه مظهره ، فإن قيل له ليست له حِرفةٌ ولا عمل سَقَط من عينه .

فهذا دليل على أن الرسول كان يهدف الى القضاء على الفقر بالعمل. وعلى اعتبار العمل مصدر الانتاج ، لا رأس المال .

الثالث : كان يحث الرسول على الاتقان في العمل . قال : « إن الله يحبُّ من العامل اذا عمل أن يُحسن»[4] وفي رواية الطبراني « أن يتقن » .

---

(١) رواه الشيخان والترمذي .
(٢) رواه البخاري
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه البيهقي

الرابع : وأن يكون العمل نافعاً . فقال رسول الله : خير العمل ما نفع[1] .

وكيْلا يتَّخذ بعضُ الناس السؤآلَ حرفةً ، مع عدم حاجتهم الى المال ، أو قدرتهم على العمل ، حدَّد الرسول الذين يحق لهم السؤآل ، ريثما تصلح أحوالهم . قال رسولُ الله مُخاطباً قبيصة بنَ مُخارق : يا قبيصةُ ، إن المسألة لا تحلّ إلاَّ لأحد ثلاثة : رجلٌ تحمَّل حمالةً (أي ما يتحمله الإنسانُ عن غيره من دِية قتيـل أو غرامة ليُصلح بين متخاصميْن) فحلَّت له المسألة، حتى يصيبَها ثم يُمسك . ورجلٌ أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله (أي آفة اهلكت مـاله) فحلَّت له المسألة ، حتى يُصيب قواماً أو سداداً من عيش . فما سواهُنَّ يا قبيصةُ سُحاتٌ ياكلُها صاحبها سُحتاً »[2] .

ففي الحالات الثلاث ، جُعلت المسألة لمدة معيَّنة ، وشَرَط للتأكد من الفاقة شهادة ثلاثة من أهل العقل .

ثم حرَّم الصدقة على كلّ مَنْ عنده مال ، أو من كان قادراً على العمل . فقال الرسولُ : « لا تحلّ الصدقة لغنيٍّ ، ولا لذي مرَّةٍ (قوة) سويّ »[3] ، فالذي عنده القوَّة يستطيـع أن يعمل ليكسب المال .

---

(١) رواه الطبراني عن زيد بن خالد
(٢) رواه مسلم وابو داود والترمذي
(٣) رواه الترمذي

وفي سبيل حفظ المجتمع الإسلامي جُعِل للحاكم أن يفرض، في بعض أنواع العمل التي لا تتم مصلحة الناس إلاَّ بها، على القادرين عليها أن يقوموا بها، إذا كان المجتمع بحاجة إليها.

ولم يغفل الإسلام العناية بالعامل والأجير. فقد قرَّر الفقهاء على أن على الحاكم إيجاد العمل لمن يستطيع أن يعمل. وللعامل أن يعمل عمله باتقان، ويصون المال الذي أؤتمن عليه، ولصاحب العمل أن يؤدي له أجره كاملاً «أعطوا الأجير أجرَه قبل أن يجفّ عَرَقُه»[1]. فلا عَمل بلا أجرٍ في الإسلام، والسُخْرَةُ ممنوعةٌ محرّمة. ويكون أجره حسب مهارته وإتقانه العمل، أي حسب منفعة صاحب العمل منه «ولا تَبْخسوا الناس أشياءهم»[2]. وله أن يطعم من صاحب العمل، وأن يأخذ منه مسكناً وكسوة ودواءً، إذا كان العُرْف متبعاً. وكذلك رأى الفقهاء، من حوادث وقعت في عهد الرسول، أنّ له حقًّا في التعويض العائلي، لأسرته، فقد كان رسول الله يُعطي الآهل نصيبين، ويُعطي العزب نصيباً واحداً. وفرض عمر لمن يولد من الأطفال فريضة في بيت مال المسلمين تُعين الأهل على كسوة الطفل والإنفاق عليه، وقرّر الفقهاء أن لا مانع يمنع العامل أيضاً أن يُشاطر صاحبَ العمل في الربح، بنسبة يتفق عليها. وأنه يمكن إعفاؤه من الضرائب لضعفه، وإذا لم يكفه أجره لسدّ نفقاته فبيت المال يسدّ عوزه. وإذا مرض العامل أو عجز عن العمل أو شاخ فبيتُ المال يُقدّم

(١) رواه ابن ماجه باسناد جيد

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥

له ما يحتاج إليه . وعلى الجملة فقد رعى الإسلامُ العـــاملَ ، وحماه ، وجهد أن يضمن له العيش الهني[1] .

٢٤ — الغش المادي ممنوع في هذا المجتمع

ولحماية الأموال ، عند الفقراء والأغنيـاء على السوآء ، فقد منع الإسلام الغش المـادّي كما منع الغش المعنوي . فكلاهما ضارٌ للمجتمع المؤمن . وكان الرسول يقول : « من غشَّنـا فليس منّـا » . وكان منعُ الغشّ من أعمال الرسول والخلفاء من بعده ، ثم سُمّي ذلك « الحسبة ». والحسبة تدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولها جانبان : جـانب يتعلّق بالأمور الروحية وحقوق الله ، وآخر بالأمور المـادية وحقوق أفراد المجتمع . ثم أصبح هذا العمل مُناطاً بالمحتسِب . فهو الذي يُراقب منع الغشّ والتدليس في البيوع والتجـارات والمـآكل والمشارب والصناعات ، ولشدّة خوفهم من الغشّ أُلّفت كتب كثيرة تبيّن ما يمكن أن يلجأ اليه أصحاب التجارات والصناعات من ضروب الغش . وكذلك يُراقب المحتسب الأسعار لئـلا يتلاعب بها التجّار ، ويُراقب المكاييل والموازين ، وكل ما قد يؤدّي به الغش الى الخسارة المادية لأفراد المجتمع[2] .

---

(١) انظر تفصيل كل ذلك في كتاب: أحكام العمل وحقوق العمال في الإسلام، لمحمد فهرشقفه. وكتاب « مشكلة الفقر » ، ليوسف القرضاوي ؛ وكتاب « العمل وحقوق العامل في الإسلام » لباقر شريف القرشي .

(٢) انظر كتاب الحسبة لابن تيمية ؛ ومعالم القربة في احكام الحسبة لابن الأخوة ؛ ونهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزري .

إن المحكّ الوحيد في هذا المجتمع ، الذي يُظهر « المسلم الصحيح » هو المعاملة . فقد جعل رسول الله « الدين المعاملة » . فبالمعاملة يُعرف المسلمُ المؤمن بربّه ، المحافظُ على قواعد الإسلام ، المتبع شروطه ، المبتعد عما نُهيَ عنه .

قال رجلٌ لعمر بن الخطّاب : إن فلاناً رجل صِدْق . قال له : هل سافرتَ معه ؟ قال : لا . قال : فكانت بينك وبينه خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنته على شيء ؟ قال : لا . قال : فأنت لا علم لكَ به .

ويشير عمر بن الخطاب فيما سأل الرجل عنه : الى المعاملة .

ومعيار المعاملة : الأمانة والاستقامة والحياء .

فمن كان أميناً في حقوق الله ، وحقوق النفس ، وحقوق أفرا المجتمع ، كان مسلماً صحيحاً . وتكون الأمانة في كل شيء : في المال والأعراض ، والجوار ، والعلم ، والبيع ، والشراء ، والكيْل ، والوزن ، والكلام ، والحديث ، وحتى في النظر والتفكير .

والاستقامة هي التي تضمن قيام الأمانة بما يجب عليها ، وتضمن تحقيقها .

أما الحياء فينبع من الايمان ، وهو الذي يمنع المؤمن من التجاوز على الحقوق والانطلاق في النزوات ، والحيـاء خُلُق الإسلام . قال رسول الله : « إن لكل دين خُلقاً ، وخلق الإسلام الحياء »[١] . وقال رسول الله : « إنّ مما أدرك الناس مـن كلام النبوّة الأولى : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت »[٢] .

---

(١) رواه مالك مرسلا
(٢) رواه البخاري وأحمد

الخاتمة

ان الناظر في نظام الاسلام . على ما عرضناه من خلال المجتمع المؤمن، يجد أن مبادئه لا توجد في أي دين سابق له، على هذا الشكل الدقيق المتكامل. ولا توجد متكاملة معاً ايضاً في أي مذهب اقتصادي مُعاصر كالماركسية، العلمية ـ أي الشيوعية، أو الاشتراكيات المختلفة، أو الرأسمالية .

فكل ما ذكرنا من الأديان أو النُّظم إما أن يكون مؤثراً للمادة مهملاً للروح ، أو ناظراً الى الآخرة مهملاً الدنيا ، أو مؤثراً للفرد ومصالحه مُعرضاً عن الجماعة ، أو مؤثراً لفئة صغيرة من الجماعة ، مستغلاً الفرد . أو مُجانباً للعقل بإنكار وجود الله ، أو بعبادة ما لا ينفع ولا يضرّ ولا يخلق، أو منصرفاً الى التألّه المحض .

لكن الإسلام جاء متمماً للديانات ، ومستدركاً ما فيها من نقص . فأمر بعبادة الخالق وحده ، الذي ينطق كل شيء في الدنيا بوجوده ، ويشهد على قدرته ، ووضع العدل ميزاناً في كل شيء . وجعل الرفق والرحمة هادياً له ، وأعطى الانسان الحرية والارادة والتفكير ، وأعزّه وكرّمه ، ومنع عنه العبودية والاستغلال ، وجمع بين منفعة الفرد

ومنفعة المجتمع الذي يعيش فيه ، وجعله مسئولاً عن مجتمعه ، كما أن مجتمعه مسئولٌ عنه . ورسم قواعد لضمان التضامن الروحي والمادي في هذا المجتمع ، لترفرف عليه السعادة التي يأملها كل انسان .

ولا أعتقد أن الانسان يتمنَّى شيئاً أحسن من هذا ، بل إن هذا إذا طُبِّق تماماً ، أعطاه منتهى ما يشتهي ويريد .

إن نظام الإسلام شمل كل شيء ، الدين والدنيـــا ، والسياسة والاقتصاد . والتربية والاجتماع . ما أغفل شيئاً ، وكلما زاد المرء فهماً له ، وتطبيقاً لمبادئه ، زاد تمسكه به ، وانتفاعه به . وزادت قناعته بأن ليس مثله نظام يلجأ اليه الانسان ليذوق أكبر نصيب من السعادة. يكفي أنه أبعد الفرد عن الشرور كل الشرور من الحقد والثورة ، وإهراق الدماء ، والفتن ، والكذب ، والقذف ، والتشهير ، واغتصاب الأموال ، وهتك الأعراض ، والتجسس ودوس الحقوق يكفي انه أمر بالرحمة والرفق والبرّ والتعاون والمحبـة والتعاضد ، والتساعد ، والصدق، وعالج مشكلات الفقر والمرض والجهل والعبودية، وقدَّم لها حلولاً ناجعة صالحة نافعة .

إن لدينا كل ما ينقذنا من الشرور والويلات التي حلّت بنا منذ نسينا أو أهملنا نظام الإسلام . فاذا أردنا الحياة الكريمة الشريفة العزيزة فلا بد أن نعمل على إعادة تحقيق أفكار الإسلام وقيمه .

الفهرس

صفحة